مخلوقات كانت رجالا

قايين وأرتيوم

روايتان

مكسيم جوركي

◆ المؤلف: مكسيم جوركي
◆ العنوان : مخلوقات كانت رجالًا- قايين وأرتيوم
◆ ترجمة : سعد توفيق
◆ طبعة آفاق الأولى 2019
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٨ / ٢٠٨٨٦
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 195 - 0

جميع الحقوق محفوظة؛ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

مكسيم جوركي

مخلوقات كانت رجالا

قايين وأرتيوم

روايتان

ترجمة

سعد توفيق

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

جوركي، مكسيم.

مخلوقات كانت رجالًا - قايين وأرتيوم

ترجمة: سعد توفيق

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019

176 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 20886 / 2018

الترقيم الدولي 0 - 195 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء

2 - جوركي، مكسيم

مخلوقات كانت رجالًا!

يقوم على جانبي الشارع المؤدي إلى المدينة صفَّان من منازل قديمة بائسة المظهر ذات طابق واحد، معوجَّة النوافذ، متداعية الجدران، يميل كل منها على الآخر، أسطحها مليئة بالثقوب والثغرات، رُمِّم بعضها بأخشاب رخيصة نمت عليها الأعشاب والطحالب، ترتفع فوقها أقفاص الحمائم على أعمدة طويلة تظللها أشجار هرمة متربة الأوراق، وصفصافات شوهها الزمن؛ نباتات بائسة لا توجد إلا في الضواحي التي يسكنها الفقراء.

وألواح زجاج النوافذ الغبراء، الملطخة ببقع قد تراكمت مع الزمن يرمق بعضها بعضًا بنظرات الغشاشين الجبناء. وعبر الشارع يمتد طريق متعرج نحو التل، يتلوى مجراه خلال حفر عميقة كونتها الأمطار. وتتجمع أكوام من حجارة مهشمة وأنواع من النفايات هنا وهناك، هي بقايا أو بدايات سدود شادها السكَّان في صراع عقيم مع

سيول الأمطار التي تندفع من المدينة بغزارة. ولكن على قمة التل تكمن منازل مبنية بالحجر جميلة الشكل بين حدائق خضراء كثيفة الأشجار، وتشمخ قباب الكنائس مزهوة نحو السماء الزرقاء، وصلبانها المذهبة تشع بشكل يبهر الأبصار تحت أشعة الشمس.

وفي الأيام المطيرة تصب المدينة وحلها كله في الشارع، وإذا صفا الجو كسته بطبقة من الغبار، وحتى هذه المنازل القذرة تبدو كأنها قُذفت من التل بيد مارد جبار، فتدحرجت، وتداعت عند أقدامه متضعضعة، ممروضة ونزعت عنها الشمس والغبار والأمطار لونها، فأصبحت بلون الخشب القديم الأغبر القذر.

وعند نهاية الشارع يقوم بيت ذو طابقين يملكه التاجر بتنيكوف، وحيدًا منعزلًا، كأنه طُرد من المدينة طردًا؛ فهو الأخير على يمين التل، ويمتد خلفه حقل فسيح طلق، ينتهي بعد نصف ميل منه تقريبًا برابية تنحدر إلى النهر. كان هذا البيت الكبير القديم أشد كآبة من جيرانه كلهم، فهو مائل على جانبه، ولم تحتفظ أي نافذة من نوافذه بشكلها الأصلي، وفي أطرها المكسورة تعكس بقايا ألواح الزجاج المهشمة لمعان ماء المستنقعات القاتم، وما يفصل بينها من جدار متسخ تملؤه الثقوب، وتغطيه البقع السوداء، كأن الزمن كتب تاريخ البيت بالهيروغليفية، وزاد السقف المتداعي مظهره بؤسًا، ولاح كأن البناء يكاد يتداعى إلى الأرض، وإنما ينتظر ضربة القدر الأخيرة ليصبح كتلة لا شكل لها من البقايا العفنة.

كانت بوابته مفتوحة، فأحد مصراعيها تحلل من روابطه، واستلقى على الأرض عند مدخل البيت، فنما العشب بين قضبانه، وكسا الفناء الكبير الخاوي إلا من بناء منخفض حديدي السقف غطى الدخان داخله بطبقة سميكة سوداء، فقد كان فيما مضى دكان حداد، واليوم استحال وكالة يشغلها ضابط متقاعد يُدعى كابتن «أرستيد فوميتش كوفالدا»، أما المنزل نفسه فكان خاليًا.

هذه الوكالة مكان كئيب مقاسه ثمانية وعشرون قدمًا في اثنين وأربعين قدمًا، تضيئها من جانب واحد أربع نوافذ مربعة الشكل وباب كبير، سوَّد الدخان جدرانها القرميدية وسقفها المبني من بقايا مركب قديم، وقام في منتصفها موقد كبير، تمتد حوله وبحذاء الجدران ألواح عريضة من الخشب تعلوها أكوام من الخرق، تستخدم كأسرة للمستأجرين، وكانت تفوح من الجدران رائحة الدخان، ومن الأرض المتربة رائحة العفونة، ومن الأرفف رائحة الخرق العفنة. أما مخدع المالك فكان على سطح الموقد، وما يجاوره أماكن ممتازة لا يشغلها إلا من يودهم ويودونه.

كان الكابتن يقضي أغلب يومه جالسًا على مقعد حجري بناه لنفسه عند مدخل الوكالة، أو في الطريق، أو في حانة «إجورفافيلوف» حيث يتناول كل وجباته ويحتسي الفودكا.

وكان «أرستيد كوفالدا» قبل أن يستأجر هذا المنزل صاحب «مكتب تخديم» في المدينة. وإذا أمعنا النظر في ماضيه، وجدنا أنه

كان صاحب مطبعة، أما قبل ذلك فقد «عاش فقط، وعاش ممتعًا أيضًا مثل من يعرف كيف يعيش!» حسب تعبيره.

وهو رجل طويل القامة عريض المنكبين يناهز الخمسين، تعلو آثار الجدري وجهه المحتقن من السكر، ذقنه كثة صفراء متربة، وعيناه واسعتان رماديتان تبتسمان، وصوته منخفض عميق تشوبه رنة من التذمر والاستياء، ولا يفارق أسنانه أبدًا غليون كبير شوهته الأيام. إذا انتابه الغضب، انتفخ خيشوما أنفه الأقني المعقوف وارتعشت شفتاه وانفرجتا كاشفتين عن صفين من أسنان كبيرة ذئبية صفراء، ذراعاه طويلتان، وساقاه معوجتان، ويرتدي دائمًا معطف ضابط قديم، وقبعة لا حافة لها تعلوها آثار الشحم والزيت، ويحوطها شريط أحمر، وينتعل حذاءً مليئًا بالثقوب، طويلًا يكاد يصل إلى ركبتيه، وكان يصبح حادًّا وبرأسه صداع شديد نتيجة السكر، ويمشي وبه شيء من النشوة، ولكنه كان مهما احتسى من خمر لا يثمل ولا تفارقه روحه المرحة.

وكان يقابل المستأجرين بعد الغروب وهو جالس على مقعده الحجري وغليونه في فمه. وكلما وقعت عيناه على بائس يقترب منه عند انحداره من المدينة ليسكر أو قادم لغرض آخر أكثر اتفاقًا مع القانون، كان يسأله نفسه:

– والآن أي نوع من الرجال ذاك؟

وبعد أن يتبادلا التحيات، ويسأله الأسئلة المعتادة، يقول له:

– دعني أرى الأوراق القانونية التي تثبت أكاذيبك.

فإذا كان ثمة أوراق كهذه، وأظهرها الرجل، ضمها الضابط إلى صدره دون أن يهتم بمحتوياتها، ويقول:

– حسنًا، كوبكين عن الليلة، وعشرة كوبكات عن الأسبوع، وثلاثين كوبكًا عن الشهر. فاذهب وانتق لنفسك مكانًا وتأكد من خلوه، وإلا فإنك لن تحصل على جحر. إن مستأجريّ أناس متجهمو الخلق.

– أتبيع شايًا، وخبزًا، ومأكولات أخرى؟

– إني أتاجر فقط في الجدران والسقف التي أدفع عنها خمسة روبلات شهريًّا للشرير الذي يملك هذا الجحر، أعني «يهوذا بتنيكوف».

ثم يستطرد في لهجة عملية:

– كما أني لا يأتيني إلا الذين لم يعتادوا الترف... أما إذا كنت قد اعتدت أن تتخم بطنك كل يوم، فهاك المطعم الذي يواجهك مباشرة، ولكن من الخير لك، على أي حال، يا حثالة الإنسانية، أن تهجر هذا الكيف؛ فأنت لست غنيًّا. إذَنْ ماذا تأكل؟ تأكل نفسك!

أمثال هذه الأحاديث التي يتبادلها مع مستأجريه بطريقة عملية مصطنعة، وبعينين باسمتين يلوح فيهما القلق، جعلته محبوبًا جدًّا بين سكان المدينة، فكثيرًا ما يحدث أن يظهر عميل سابق قانطًا في

أسماله، إلا أن مظهره أبعث على الاحترام، ووجهه أكثر سعادة من ذي قبل، ويقترب من الكابتن ويحييه قائلًا:

- طاب يومك، يا صاحب السعادة، كيف حالك؟

- عائش، وبصحة جيدة، أتريد شيئًا آخر؟

- ألا تعرفني؟

- لا!!

- ألا تذكر أني قضيت عندك شهرًا في الشتاء الماضي.. عندما أتى البوليس وقبض على الثلاثة؟

- أوه، حسنًا، البوليس يأتي دائمًا تحت سقف بيتي المضياف.

- ألا تذكر أنك قد أقذعت مفتش بوليس المنطقة سبابًا؟

- الآن دعنا من هذه الذكريات، قل مباشرة ما تريده يا بني.

- ألا تقبل مني تسلية بسيطة؟ فعندما عشت معك كنت...

- يجب تشجيع العرفان بالجميل، يا صديقي، فهو أمر نادر في هذه الدنيا. لا بد أنك إنسان طيب، وإن كنت لا أعرفك، سأصحبك إلى الحانة وأشرب بسرور عظيم نخب نجاحك في الحياة.

- إنك كعهدي بك، لا تكف عن المزاح.

- وماذا أعمل غير ذلك؟ فالحياة هنا مقبضة.

ويذهبان إلى الحانة، ويحدث أحيانًا أن يعود عميله السابق -وقد

أنسته وأثملته التسلية- إلى الوكالة، وفي غد يحض كل منهما الآخر على الشراب ثانية، حتى يفيق زميل الكابتن ذات صباح صحو، فيجد أنه بدد كل نقوده على الشراب.

- ها أنت ترى يا صاحب السعادة أني صاحبتك مرة أخرى! ماذا نفعل الآن؟

- الحالة، ولا شك، لا يشجع المرء عليها ولكن إياك والشكوى، يجب ألا يبالي الإنسان شيئًا يا صديقي، وألا يفسد حياته بالفلسفة، فلا يسأل نفسه أي أسئلة. التفلسف «عبط» دائمًا، كما أن التفلسف برأس صدعها السكر أمر أسوأ؛ فكل الصداعات الناتجة عن السكر تحتاج مزيدًا من الفودكا، لا مزيدًا من الندم، أو صر الأسنان.. لا تتلف أسنانك، فقد تنفعك عندما تضرب علقة. هاك عشرين كوبكًا، واشتر بها زجاجة فودكا وبخمسة أخرى اشتر بعض الكرشة الساخنة أو الرئات، ورطلًا من الخبز وخيارتين. وعندما نفيق من صداعنا نبحث الأمر.

وكان بحث الأمر يستمر دائمًا يومين أو ثلاثة، ولا ينتهي إلا عندما لا يتبقى مع الكابتن كوبك واحد من الثلاثة أو الخمسة روبلات التي كانت في جيبه وقت وصول عميله الكريم.

وعندئذ يقول الكابتن:

- حسنًا، نحن غارقون في الشوربة، والآن... وقد شربنا معك إلى آخر بنس «يا عبيط»، دعنا نحاول ثانية الظفر بطريق الفضيلة والوقار..

فقد قيل بحق إنك إذا لم تخطئ لن تندم، وإذا لم تندم لن تخلص من الخطيئة، وقد فعلنا الأولى، أما الندم فلا فائدة فيه. دعنا نهجم مباشرة على الخلاص. اذهب واشتغل على شاطئ النهر، وإن ظننت أنك لا تستطيع الاعتماد على حكمتك، اطلب من رئيسك أن يحفظ لك نقودك، أو أعطنيها لأحفظها لك، وعندما يتجمع لدينا رأس مال كافٍ، سأشتري لك سروالين وأشياء أخرى ضرورية؛ لتظهر بمظهر الرجل المحترم المجد الذي يضطهده القدر بلا داعٍ، فبسروال جديد يمكنك التقدم ثانية، والنجاح في الحياة، وإلا مع السلامة!

فيذهب العميل إلى شاطئ النهر ليعمل «كمراكبي» أو أي عمل آخر، وهو يفكر مسرورًا في كلمات الكابتن التي وإن لم يكن يفهمها تمامًا، إلا أنه رأى أمامه عينين باسمتين، فأحس تأثيرهما المشجع، وعرف أن له في الكابتن الثرثار ذراعًا يعينه وقت الحاجة.

ويحدث فعلًا بعد شهر أو ما يقرب منه -بالعمل الشاق ومراقبة الكابتن الحازمة- أن يرفع الزبون نفسه قليلًا من الحالة التي انحدر إليها بفضل الكابتن نفسه.

قال الكابتن وهو يرمق عميله القديم متفحصًا:

- الآن يا صديقي، لدينا معطف وسترة، صدقني، إنهما عاملان هائلا الأهمية؛ فعندما يكون لديَّ سروال محترم أعيش في المدينة كرجل محترم، ولكن مجرد ما تسقط عن السروال جدته، أسقط أنا أيضًا في نظر رفقائي، ويكون عليَّ أن أهبط من المدينة إلى هنا؛

فالناس، أيها «العبيط» العزيز، يحكمون على الأشياء من مظهرها الخارجي، ويفوتهم جوهرها الحقيقي، وذلك لأنهم ولدوا أغبياء.. تذكر هذا، وادفع لي نصف دَينك على الأقل، ثم اذهب بسلام، وابحث، فقد تجد...

فيسأله العميل مرتبكًا:

- كم تريد مني يا «أرستيد فوميتش؟».

- روبلًا وسبعين كوبكًا.. ولكن أعطني روبلًا الآن، أو إذا شئت أعطني سبعين كوبكًا، وسأصبر على الباقي حتى تدخر أكثر مما لديك الآن، سواء عن طريق السرقة أو العمل الشاق.

فقال العميل ويده على قلبه:

- أشكرك بكل تواضع على عطفك، إنك رجل عطوف حقًّا.. لقد اضطهدتك الحياة ظلمًا... أي نسر كنت تكونه في مكانك الصحيح!

وكان الكابتن لا تمكنه الحياة دون التعليق بأحاديث بليغة، فقال:

- ما معنى مكاني الصحيح؟ لا أحد يعرف مكانه الصحيح في هذه الحياة، فكلنا نسطو على أماكن بعضنا البعض. فمكان «يهوذا بتنيكوف» كان يجب أن يكون في الأشغال المؤبدة، ولكنه لا يزال يسير في الشوارع في رائعة النهار، بل ينوي أن ينشئ مصنعًا أيضًا. ومكان مدرسنا كان يجب أن يكون بجوار زوجة صالحة ونصف دستة من الأطفال، ولكنه يرقد ذليلًا في حانة «فافيلوف».

وها أنت ذاهب لتبحث عن مكان في الحياة كصانع أحذية أو نادل، ولكني أعرف أن الجندية مكانك؛ لأنك ذكي وصبور وتفهم النظام، أرأيت سخرية الحياة؟ إنها تلعب بنا كأننا أوراق اللعب، فإن سقطنا في أماكننا الصحيحة لا يكون ذلك إلا مصادفة ولمدة وجيزة.

وكانت أحاديث اللقاء هذه دائمًا بمثابة مقدمة لوصل ما انقطع من صداقتهما التي تبدأ ثانية بسكرة جيدة، وتبلغ ذروتها عندما يجد العميل مرة أخرى لدهشته البالغة أنه أنفق كل ما معه، فينفق الكابتن نقوده بدوره حتى يستنفدها كلها.

ولم تكن هذه الحوادث المتكررة تؤثر شيئًا في العلاقات الطيبة بينهما.

وكان المدرس الذي ذكره الكابتن عميلًا آخر لا يتوب إلا ليقع في الإثم من جديد. صداقته بالكابتن أوثق من بقية عملائه؛ لأنه كان رجلًا مثقفًا، بل ربما كانت صداقته للكابتن هي سبب انحداره إلى حياة الوكالة، وعجزه عن النهوض ثانية، ومعه فقط كان «أرستيد كوفالدا» يستطيع أن يتفلسف وهو موقن من أنه سيفهم. وقد كان يقدر هذا فيه، فعندما كان المدرس يعزم على التوبة، ويدخر بعض النقود، ويستعد لترك الوكالة ليبحث له عن مكان في المدينة، كان أرستيد كوفالدا يستقبل الخبر بكثير من الحزن والأسف، واحتجاجات لا حصر لها على قطع أواصر الصداقة حتى ينتهي الأمر بشربهما الخمر معًا وإنفاق ما معهما كالمعتاد. ربما كان كوفالدا يدبر الأمر عامدًا حتى لا يتمكن

المدرس من ترك الوكالة. أكان يمكن لأرستيد كوفالدا -وهو رجل ذو ثقافة لا تزال بقاياها تشع في أحاديثه ونمت أهواء القدر فيه عادة التفكير- أكان يمكن له التخلي عن صحبة رجل أشبه به من الآخرين؟! كلنا نعرف كيف نلتمس وسائل العزاء لأنفسنا!

تلقى هذا المدرس علومه في مدرسة متوسطة في المدينة على نهر الفولجا، وعمل مدرسًا، ثم رُفِد من عمله.

فاشتغل كاتبًا في مدبغة، ثم بائع كتب، وحاول أعمالًا أخرى متنوعة، وأخيرًا، بعد أن اجتاز عدة امتحانات تؤهله للمحاماة أصبح محاميًا، واعتاد الشراب الذي انحدر به إلى وكالة الكابتن. كان رجلًا طويلًا، مستدير الكتفين، ذا أنف طويل مدببة ورأس يشوبها الصلع، له عينان قلقتان غائصتان في وجهه الذي تزينه لحية صغيرة بشكل الإسفين، ويتدلى جانبا فمه بأسف.

كان يكتسب خبزه -أو شرابه بعبارة أصح- بمراسلة بعض الصحف المحلية، وكان يدخر أحيانًا ما يقرب من خمسين روبلًا في نهاية الأسبوع، فيعطيها للكابتن قائلًا:

- لا سكر بعد اليوم، سأعود ثانيًا إلى المدينة.

فيحذره الكابتن جادًّا في تحذيره:

- عظيم جدًّا، وحيث إني أؤيد قرارك من كل قلبي، يا فيليب، لذا لن أعطيك ولا قدح آخر.

- سأكون شاكرًا لك.

وإذا يسمع الكابتن صديقه يستمنحه قدحًا آخر بشيء من الخجل، يصبح أكثر جدية ويقول:

- يمكنك أن تصرخ طلبًا له، ولكني لن...

فيتنهد المدرس قائلًا:

- إذَنْ كما تشاء.

ويعود ثانية إلى عمله، ولكنه بعد يوم أو يومين يعود وهو يحملق بعينين ظمآوتين هنا وهناك بحثًا عن الكابتن، فإذا لم يجده انتظر قلقًا ليلين قلبه.

وعندما يتقابلان يندفع الكابتن متحدثًا بتهكم لاذع، عن ضعف بعض الشخصيات المهين، والسرور الحيواني بالنشوة، وموضوعات أخرى تلائم المناسبة، ويجب على المرء أن ينصفه؛ فقد كان في الحقيقة مأثورًا بدوره كأخلاقي وناصح أمين، ولكن المستأجرين الشكاكين، وهم يراقبونه ويصغون إلى خطبه المرتجلة عن الفضيلة والتوبة، كان يهمس بعضهم لبعض جانبًا قائلين:

- يا للثعلب! أي لسان له! لقد نصحتك ولكنك لم تستمتع إليَّ، فلا تلومن إلا نفسك الآن!

- سعادته في الحقيقة جندي حسن، في المقدمة دائمًا، ولكن لا يفوته أن ينظر وراءه.

ثم يمسك المدرس -بصديقه في ركن مظلم متعلقًا بمعطفه القذر- وهو يرتجف ظمأً ويمرر لسانه على شفتيه اليابستين، ويتطلع إليه بنظرة عميقة لا يوصف أساها.

فيسأله الكابتن متخابثًا:

- ألا يمكنك أن تتحمل أكثر من ذلك؟

وكان المدرس يجيبه بهز رأسه نفيًا.

فيقترح عليه كوفالدا قائلًا:

- انتظر يومًا آخر.. ربما تغلبت على نفسك.

فيتنهد المدرس ويهز رأسه مرة أخرى.

وإذ يرى الكابتن أن جسد صديقه يرتجف من ظمأه للسم، كان يأخذ بعض النقود من جيبه، ويقول كأنه يحاول الدفاع عن نفسه أمام إنسان ما:

- في معظم الحالات من العبث مغالبة القدر.

وعلى أي حال، لم يكن المدرس ينفق كل نقوده على الشراب، فنصفها على الأقل كان يذهب إلى أطفال الشارع.

فالفقراء أثرياء دائمًا بالأطفال، وكان في هذا الشارع جماعات منهم تهيم من الصباح إلى المساء في أوحاله وأقذاره محدثين ضوضاء عالية. الأطفال زهور الأرض الناضرة، ولكن هؤلاء كان لهم مظهر زهور ذبلت قبل أوانها. كثيرًا ما كان المدرس يجمعهم حوله،

ويشتري لهم خبزًا وبيضًا، وتفاحًا وبندقًا، ويأخذهم إلى الحقول بجوار شاطئ النهر، وهناك يجلسون ويأكلون أولًا كل ما يعطيهم بشراهة، ثم يأخذون في اللعب، مالئين الحقول بضوضاء وضحك يسمع على بُعد ميل. وكان شكل السكير الطويل النحيل يبدو كأنه يتقلص بين هؤلاء الصغار، الذين كانوا يعاملونه كأنه منهم، فيدعونه «فيليب» دون أن يكلفوا أنفسهم عناء إضافة كلمة «عم» قبل اسمه، ويشدونه ويدفعونه وهم يلعبون حوله، كأنهم أرواح صغيرة، ويقفزون على ظهره، ويضربونه على رأسه الصلعاء، ويشدونه من أنفه. لا بد أن هذا كان يسره؛ لأنه لم يكن يعترض على حريتهم هذه أبدًا، وكان مقلًّا في حديثه إليهم، وإن تحدث فبحرص وخجل، كأنه يخشى أن تؤذيهم كلماته أو تلوثهم. وكان يقضي الساعات الطوال بينهم هكذا كرفيقهم ولعبتهم متطلعًا إلى وجوههم الناضرة بعينيه المظلمتين، ثم يقود خطواته ساهمًا مفكرًا إلى حانة فافيلوف حيث يسكر نفسه حتى يفقد وعيه.

* * *

وكان كل يوم تقريبًا عند عودته من عمله يأتي معه بجريدة، ويجمع حوله كل هذه «المخلوقات التي كانت رجالًا»، يقترب أفرادها منه ثملين، أو متألمين من صداع السُّكْر، متفاوتي الرثاثة، ولكن متساوين في البؤس والفقر؛ فيتقدم ألكسي مكسيموفيتش سيمستوف؛ بدينًا كأنه برميل، كان في وقت ما خفير مزارع، يتاجر الآن في الحبر

والصبغات، عجوز في الستين، يرتدي معطفًا من الجيش وقبعة تخفي حوافها العريضة وجهه الأحمر السمين ذا الذقن الكثيفة البيضاء، التي تبرز منها أنف قانية مضحكة شماء، وعينان بلون الماء تشعان باستهتار. يدعونه «البرميل» وهو لقب يصف تمامًا شكله المستدير وحديثه الأجش المحشرج، ويبدو وراءه «مصيبة» من ركن ما وهو سكير قاتم اللون مشؤوم الطلعة ينذر بالشر، لا يتحدث إلا نادرًا، ثم لوقا أنطونيفتش مرتيانوف الذي يعيش من ألعاب: «السوط» و«الثلاث ورقات» و«البنكنوت» ومن أعمال أخرى متساوية في شرها وفي نفور البوليس منها، كان يلقي بجسده الصلب الهائل على العشب بجانب المدرس، ويبحث حوله بعينين جشعتين ويشير إلى زجاجة الفودكا، ويسأل في صوت أجش خفيض:

- أيمكنني؟

ثم يظهر المهندس الميكانيكي بافل سولينتسوف، وهو رجل في الحلقة الثالثة، مصدور، تحطمت أضلاعه اليسرى في معركة، تعلو وجهه المدبب الشاحب ابتسامة شريرة، وتكشف شفتاه النحيلتان عن صفين من أسنان سوداء جللها المرض، وتتمايل الأسمال على كتفيه الضيقين العظميين خلفًا وأمامًا، كأنها معلقة على مشجب، وكانوا يدعونه «كومة عظام» ويرتزق من بيع فرش ومكانس ابتكرها بنفسه، ويصنعها من نوع معين من العشب، وتصلح لتفريش الملابس.

ثم يقبل رجل طويل نحيل تلوح على عينه اليمنى الواسعة الوحيدة نظرة وجلة، كان صموتًا خجولًا، دخل السجن ثلاث مرات متهمًا بالسرقة، اسمه كيلينوكوف، ولكنهم يدعونه «تاراس ونصف»؛ لأن طوله يقرب من ضعف طول صديقه الحميم الشماس تاراس الذي رفد من عمله لإدمانه الخمر واستهتاره. كان رجلًا قصيرًا متين البنية، ذا صدر قوي ورأس مستدير محلوق، يرقص بمهارة، وأكثر مهارة في السباب.

كان هو «وتاراس ونصف» يشتغلان بنشر الأخشاب على شاطئ النهر، وفي ساعات فراغه يخبر صديقه أو من يقبل الاستماع «أقاصيص من إنشائي الخاص» كما اعتاد أن يسميها، أبطالها دائمًا قديسون أو ملوك وقساوسة أو قُواد يروي عنهم مغامرات سافلة ماجنة، وعيناه نصف مغمضتين بطريقة تجعل حتى سكان الوكالة يبصقون اشمئزازًا، ويحملقون دهشة من خيال الشماس العجيب. وكانت خيالات هذا الرجل قوية لا تنفد، فقد كان يمكنه أن يمضي في الرواية طيلة النهار، دون أن يريح نفسه، ربما دفن شاعر عظيم في هذا المخلوق، أو قصاص ماهر، قادر على بث الحياة والروح في الحجارة بكلماته الوضيعة المؤثرة.

وكان هناك أيضًا شاب مهووس يُدعى كوفالدا متيور، أتى ذات ليلة يبيت في الوكالة، وبقي من وقتها بين هؤلاء الرجال، لرغم دهشتهم الشديدة، وإن يكن لم يسترع انتباههم أول الأمر. كان يذهب

نهارًا ليبحث عن رزقه مثل الآخرين، ويتلكأ ليلًا حول هذه الجماعة المتصادقة حتى لحظه الكابتن آخر الأمر، وناداه قائلًا:

- يا ولد، أي عمل لك هنا؟

فأجابه الفتى بشجاعة وقوة:

- أنا أفَّاق حافي القدمين.

فنظره الكابتن متفحصًا. كان ذا شعر طويل، ووجه ساذج، ناتئ عظام الوجنتين، وأنف شماء، يرتدي قميصًا أزرق دون حزام، ويضع على رأسه بقايا قبعة من قش، أما قدماه فكانتا حافيتين.

فأعلنه أرستيد كوفالدا قائلًا:

- إنك أبله! عن أي شيء تبحث هنا؟ أتشرب الفودكا؟ لا.. حسنًا إذَنْ، أيمكنك أن تسرق؟ أيضًا لا. اذهب يا شاطر وتعلم كيف تصير رجلًا، ثم عُد إلينا.

فابتسم الفتى قائلًا:

- لا. سأعيش بينكم.

- لماذا؟

- لمجرد...

فقال الكابتن:

- أوه.. يا متيور.

فتدخل مارتيانوف قائلًا:

- سأكسر أسنانه.

فسأله الشاب:

- لأي سبب؟

- لمجرد...

فأجابه الشاب باحترام:

- وأنا سآخذ حجرًا وأضرب بها رأسك.

وكاد مارتيانوف أن يحطم عظامه، لولا أن تدخل الكابتن قائلًا:

- دعه وشأنه.. إننا طيور من شاكلة واحدة، وليست لديك أسباب قوية حتى تكسر أسنانه، وهو أيضًا ليست له أسباب أحسن تحمله على العيش معنا. حسنًا إذَنْ، ليأخذه الشيطان! كلنا نعيش في هذه الدنيا دون سبب معقول.

ونصحه المدرس، وهو يراقبه بعينيه الحزينتين، قائلًا:

- ولكن من الأفضل لك أيها الشاب، أن تبتعد من هنا.

ولم يجب الأخير، ولكنه بقي وسرعان ما اعتادوا أن يلحظونه، واستمر يعيش بينهم ملاحظًا كل شيء.

كل الرجال السالفو الذكر أهم أفراد حاشية الكابتن، وقد سماهم بحسب تهكمه القلبي العطوف «مخلوقات كانت رجالًا».

وعلاوة عليهم كان في الوكالة دائمًا ما يقرب من خمسة أو ستة من الأفَّاقين المحترفين أو العارضين، لا يمكنهم الفخر بأن لهم ماضيًا كماضي المخلوقات؛ فهم أكثر اكتمالًا، وأقل خواء، وإن كانوا هم أيضًا قد خبروا كثيرًا من ألاعيب القدر القاسية، كان أغلبهم فلاحين انصرفوا عن الفلاحة.

وكان أكثر أفراد المجموعة الأخيرة حيوية فلاح عجوز يُدعى طيابا، طويل القامة بشع النحول، يتدلى رأسه بحيث تمس ذقنه صدره، فبدا أشبه بجامع الخرق، ولا يمكن أن يتبين المرء وجهه إلا جانبيًّا، وعندئذ يرى أنفًا معوجًّا، وشفة مدلاة، وحاجبين أشعثين أشيبين.

كان هذا الرجل أول من استأجر من الكابتن ركنًا يأوي إليه ليلًا، وأُشيع أن لديه قدرًا كبيرًا من النقود أخفاه في مكان أمين، وأنه منذ سنتين حاول امرؤ قطع عنقه بسببها، ومن يومها ورأسه مدلى هكذا. وكان ينكر أن لديه نقودًا، ويقول إنهم حاولوا قطع عنقه لعدائهم له، وإن كان جمع الخرق الذي يقتضي النظر في الأرض عملًا سهلًا بالنسبة له. وكان عندما يمشي مشيته المترنحة دون عصا في يده أو بقجة خلف ظهره، يبدو كرجل غارق في تأملاته. واعتاد كوفالدا أن يقول وهو يشير نحوه بأصابعه:

– انظروا، ها هو التاجر يهوذا بتنيكوف يسير. انظروا كم هو رث الهيئة، وقذر، ومنحط.

أما صوت طيابا فأجش خشن غير واضح المقاطع، وربما كان هذا سبب ندرة كلامه، وحبه للوحدة.

ولكن إذا أجبرت الحاجة أحد جامعي الخرق على أن يترك المدينة ويظهر في الوكالة، كان طيابا يضطرب وينتابه الغضب، ويتتبع الرجل البائس بسخرية قارصة تخرج من حلقه محشرجة غاضبة، ويعادي الشحاذ الجديد أو يهدده بالسرقة والضرب حتى يختفي الرجل الخائف من الوكالة، فيعود طيابا إلى هدوئه ويجلس في ركن من الأركان يصلح خرقه أو يقرأ إنجيله الذي كان قذرًا، باليًا، عجوزًا مثله، ولا يبرح ركنه إلا عندما يحضر المدرس الجريدة ويأخذ في القراءة، فيصغي صامتًا متنهدًا في أعماقه إلى أن يفرغ من قراءتها، ويرغب في وضعها جانبًا، فيمد طيابا يده العظمية المعروقة، قائلًا:

- أعطنيها.

- لماذا تريدها؟

- أعطني إياها ربما كان بها شيء نافع لنا.

- لمن؟

- للقرية.

فيضحكون منه ويلقون إليه بالصحيفة التي يتناولها ويقرأ فيها كيف دمر السيل حقول القمح في مدينة ما، وكيف أنه في قرية أخرى دمرت النار ثلاثين منزلًا، وكيف سمت امرأة زوجها؛ كان يقرأ كل ما ينتج عن الطبيعة الإنسانية التي يصمها بأنها شريرة، وتعسة، وجاهلة،

صامتًا مزمجرًا، ربما كان يعبر عن عاطفته أو سروره بذلك.

أما يوم الأحد فكان ينفقه في قراءة الإنجيل، ولا يخرج أبدًا ليجمع الخرق في هذا اليوم، كان يضع الكتاب مجاورًا صدره، وينتابه الغضب إذا قاطعه إنسان أو مس إنجيله.

واعتاد كوفالدا أن يغيظه قائلًا:

- حسنًا يا دودة الكتب القذرة، ماذا تفهم من كل هذا؟

- وماذا تفهم أنت؟

- لا أفهم شيئًا، ولكني لا أقرأ الكتب.

- حسنًا، وأنا أقرأها.

فيقول الكابتن بحزم:

- إذَنْ أنت عبيط، فالحشرات التي تسكن رأسك تؤذيك، فما بالك وأنت تدخل إليه الأفكار أيضًا؟ ماذا تفعل عندئذ، أيها الضفدع البري؟

فيجيبه طيابا هادئًا:

- لم يبق لي كثير من العمر.

وذات مرة سأله المدرس كيف تعلم القراءة؟ فأجابه بإيجاز:

- في السجن.

- أوه! لقد كنت هناك، هل كنت؟

- نعم، كنت...

- لأي سبب؟

- لمجرد غلطة مني... ولكني حصلت على الإنجيل هناك، أعطته لي سيدة... إنه من المفيد أن تدخل السجن، يا أخي.

- أهو كذلك؟ لماذا؟

- إنه يعلم الإنسان... فقد تعلمت القراءة هناك... وحصلت أيضًا على هذا الكتاب... وكل هذا مقابل لا شيء.

وعندما ظهر المدرس في الوكالة، كان طيابا قد سبقه بمدة، وأخذ يراقبه متعمدًا، وكان عليه إذا أراد أن ينظر وجه إنسان أن يحني جسمه كله إلى جنب، وكان يصغي إلى حديث المدرس بشراهة، وذات مرة جلس بجواره وقال:

- أرى أنك متعلم جيدًا... فهل قرأت الإنجيل؟

- قرأته.

- فاهم، فاهم... أيمكنك أن تتذكره؟

- نعم... أنا..

فانحنى الرجل العجوز إلى جنب، وحدق في زميله بنظرة مرتابة ثابتة من عينيه الرماديتين، وقال:

- كان هناك العمالقة، ألا تذكر؟

- حسنًا.

- أين هم الآن؟

- اختفوا.. يا طيابا.. اندثروا.

فسكت العجوز، ثم سأل ثانية.

- وأين الفلسطينيون؟

- هم أيضًا...

- كلهم..

- وهكذا - وهكذا نحن أيضًا سنندثر يومًا.

- وإلى أي سبط من أسباط إسرائيل ننتمي نحن؟

فتطلع إليه المدرس هنيهة، ثم أخذ في إخباره عن الساسانيين والعبيد والسامريين.

فازداد العجوز انحناء ونظر زميله بعينين خائفتين، وقال باحتقار عندما فرغ المدرس من كلامه:

- أكاذيب، كل كلامك أكاذيب.

فقال المدرس بدهشة:

- ماذا تعني؟

- أعني أنك تتكلم عن قبائل غير مذكورة في الإنجيل.

ونهض من مجلسه منصرفًا، وهو يتمتم لنفسه غاضبًا، فشيعه المدرس مقتنعًا بقوله:

- إنك في طريقك إلى الجنون يا طيابا.

فعاد العجوز ثانية وهدده بأصبعه الملتوية القذرة قائلًا:

- لقد أتى آدم من الله، ومن آدم انحدر اليهود، وهذا يعني أن كل الناس من نسل اليهود.. ونحن أيضًا.

- حسنًا..

- التتر انحدروا من إسماعيل، ولكنه هو أيضًا من نسل يهودي.

- لماذا تخبرني كل هذا؟

- أبدًا، فقط، لماذا تخبرني أكاذيب؟

وانصرف تاركًا رفيقه في حيرة، ولكنه عاد بعد يومين وجلس بجانبه وبدأ يقول:

- أنت متعلم، فلتخبرني إذَنْ من نحن؟

فأجابه المدرس قائلًا:

- نحن العبيد يا طيابا.

- هات لي من الإنجيل، ليس ثمة أناس كهؤلاء فيه، فهل نحن البابليون؟

وهنا فتح المدرس الإنجيل وأخذ في القراءة، فأصغى العجوز طويلًا، ثم قاطعه قائلًا:

- قف.. انتظر! ذلك يعني أن الروس ليسوا معروفين لدى الله؟

هل الله لا يعرفنا حقًّا؟ أهو كذلك؟ لقد عرف الله كل الذين ذكروا في الإنجيل وأفناهم بالسيف والنار، ودمر مدنهم، ولكنه أرسل إليهم أنبياء ليعلموهم، وهذا يعني أنه يشفق عليهم أيضًا، وقد شتت شمل اليهود والتتر، ولكنه حماهم أيضًا.. ولكن ماذا عنا؟ ولماذا ليس لنا أنبياء؟

فأجاب المدرس، وهو يحاول فهم ما يقول العجوز:

- حسنًا، لا أعرف!

فوضع طيابا يده على كتفه، ودفعه قليلًا ذات الأمام وذات الخلف، وكانت ثمة قعقعة في زوره كأنه يزدرد شيئًا، وقال:

- ذلك كذلك، إنك لا تعرف.. ولكنك ترغي وتزبد كأنك تعرف كل شيء، إني أشمئز من الإصغاء إليك؛ لأنك لا تفعل شيئًا إلا أن تطفئ نور روحي، خير لك أن تجلس صامتًا. من نحن؟ إيه؟ ولماذا ليس لنا أنبياء؟ ها! ها! وأين كنا عندما جاء المسيح على الأرض، إيه؟ وتكذب أيضًا، إن شعبًا بأكمله لا يمكنه أن يندثر، لا يمكن. الروس لا يمكن أن يندثروا.. كلامك كذب.. إنهم مذكورون في الإنجيل، ولكن لا نعرف تحت أي اسم يندرجون.. هذا كل ما في الأمر.. ألا ترى أي أناس كثيرين هم؟ وكم قرية ومدينة لهم؟ يعيش فيها أناس أقوياء قادرون، ومع ذلك تقول إنهم سيندثرون.. الفرد يموت، أما الشعب فلا.. إن الله يحتاجه، فهو الذي يعمر الأرض. العمالقة لم يندثروا، وإنما هم يدعون الآن ألمانًا أو فرنسيين، ذلك كل ما في

الأمر.. أخبرني الآن؛ لماذا هجرنا الله؟ ولماذا لم يعاقبنا أو يرسل لنا أنبياء؟

كان كلام طيابا قويًّا يشيع فيه إيمان عميق ولوم واحتقار، ولما كان المدرس ثملًا كعادته، وفي حالة عقلية مظلمة، فإنه لم يستطع تحمله طويلًا، وشعر كأن الكلمات تنفذ في جسده كأسنان منشار خشبي. أصغى إلى العجوز وتطلع إلى جسده المشوه، وشعر بقوة كلماته النافذة، وفجأة اجتاحه تحسر على نفسه عظيم، وأراد أن يقول بدوره شيئًا مقنعًا يجذب طيابا إليه، ويجعله يتحدث إليه بلطف كأنه أب رحيم، لا بهذه الطريقة اللائمة القاسية، وثارت الدموع في حلقه وخنقته، فأردف طيابا قائلًا:

- أي نوع من الرجال أنت؟ إن روحك ممزقة، ولا تزال ترغي كأنك تعرف شيئًا، خير لك الصمت.

فأجابه المدرس محزونًا:

- آه يا طيابا، إن ما تقوله حق.. الناس... إنك محق... إنهم لا حصر لهم، ولكني غريب عنهم، وهم غرباء عني.. أرأيت موضع المأساة؟ ولكن لا يهم! سأستمر أتحمل عذابي، ليس هناك أنبياء، كما قلت.. لا إنك على صواب، سأسكت.. أرجوك فقط ألا تتحدث إليَّ هكذا. آه يا صديقي العزيز! إنك لا تعرف.. لا تعرف.. لا يمكنك أن تفهم.

وأخيرًا صرخ المدرس بسهولة وانطلاق، وتفجرت الدموع

مدرارة من عينيه، ووجد فيها راحته، فسأله طيابا بحزم:

– لماذا تضيع وقتك هنا؟ يجب أن تذهب إلى المدينة... حاول أن تكون كاتبًا أو مدرسًا.. ستحصل على غذاء طيب وتحيا حياة جديدة.

ولكن المدرس كان يصرخ واجدًا الراحة في الدموع التي تتفجر من قلبه.

ومن ذلك اليوم توطدت بينهما أواصر الصداقة، وكانت «المخلوقات التي كانت رجالًا» تقول إذ تراهما معًا:

– لقد اصطلح المدرس مع طيابا، إنه وراء نقوده، لا بد أن كوفالدا حثه على ذلك، على أن يشمشم حتى يجد مكان ثروة الرجل.

ربما كانوا يقولون ذلك من أفواههم فقط، فقد كان ثمة أمر غريب في هؤلاء الرجال، أعني أنهم كانوا يصورون أنفسهم أمام الآخرين أسوأ مما هم في الحقيقة، فالإنسان الذي تخلو نفسه من كل شيء طيب يزهو به، يسره أحيانًا أن يعرض الجوانب السيئة من طبيعته.

* * *

اعتادت هذه المخلوقات أن تلتف حول المدرس، وهو يقرأ الجريدة، ويسأله أحدهم:

– حسنًا، فيما تبحث الجريدة اليوم؟ ألا ثمة قصة؟

فأجابه المدرس بالنفي.

– يبدو أن ناشرك لاذع القول.. أثمة افتتاحية؟

- توجد واحدة اليوم... بقلم جلييف.

- آها، اقرأها؛ إنه يكتب بمهارة، يا له من وغد، عليه اللعنة!

فقرأ المدرس:

- لقد أقر المجلس فرض الضرائب على العقار الثابت من خمسين عامًا، ولا يزال حتى الآن أساسًا لجمع هذه الضرائب لمساعدة ميدان المدينة.

فعلق الكابتن قائلًا:

- هذا كلام في غاية السذاجة، لا يزال ينفق، حقًّا... إن ذلك مضحك، فلا يستفيد من هذا غير تجار المدينة.

فقال المدرس:

- المقال في الواقع منصب على هذا الموضوع.

فصاح الشماس قائلًا:

- أهو كذلك؟ غريبة، إنه أصلح لأن يكون موضوع قصة... يجب أن يعالج بشيء كثير من الفلفل.

ثم دارت مناقشة قصيرة، وأصغت «الصحبة» بانتباه كما لو أنها لم تشرب إلا زجاجة فودكا واحدة.

وبعد الافتتاحية، كانوا يقرأون الأنباء المحلية، ثم القضايا الصغيرة، فإذا كان من بين المتهمين تاجر، فرح كوفالدا من قلبه، وإذا سرق إنسان تاجرًا، قال:

- عظيم، ولكن من المؤسف أنهم لم يسلبوه إلا هذا القدر الضئيل.

وإذا سرق لص لجام حصان أحد التجار.. فهذا أمر يسر، لكن «من المؤسف أنه لا يزال حيًّا»، وإذا خسر تاجر قضية قال: «من المؤسف أن النفقات لم تكن ضعف ما هي عليه».

فعلق المدرس قائلًا:

- ذلك يكون ظلمًا!

فسأله الكابتن بأسى:

- ظلم! ولكن هل التاجر نفسه عادل؟ ما التاجر؟ دعنا نبحث هذه الظاهرة السخيفة الفظة، أولًا كل تاجر هو فلاح أجير ينزح من القرية إلى المدينة، وبمرور الوقت يصير تاجرًا. ولكن كي تكون تاجرًا تلزمك النقود، ومن أين للفلاح الأجير بالنقود؟ من المعروف تمامًا أنه لا يحصل عليها بالعمل الشريف، وذلك يعني أن الفلاح الأجير كان لصًّا بطريقة ما، وهذا معناه ببساطة أن التاجر فلاح أجير عديم الذمة.

- عظيم.

صاح المستمعون موافقين على حسن استدلال الخطيب، وكان طيابا يخمش صدره طول الوقت، وهذه عادته عندما يشرب أول قدح بعد أن يثمل، والتمع الكابتن سرورًا، ثم يقرأون الأخبار، وهذه بالنسبة للكابتن «فتح بوابة السيل» كما يقول؛ إذ يرى في كل خبر كيف يبني

التاجر هذه الحياة مفسدًا إياها، وكيف يحطم كل ما شيد من قبل، فيرعد حديثه على التجار ويمحوهم، وتصغي المخلوقات بسرور عظيم، عندما يقسم بجسارة قائلًا:

– لو كتبت في... لأظهرت التاجر في شكله الحقيقي؛ لأظهرت أنه وحش، يزاول وقتيًّا وظائف الإنسان، وأنه ريفي جلف، لا يعرف طعم الحياة، ولا الوطنية، وأن خمسة كوبكات هي كل ما يهمه من الدنيا بأسرها.

فيثيره «كومة عظام» العارف بمواطن ضعف الكابتن، والمغرم بإغضاب الآخرين:

– أجل، منذ أخذ النبلاء يموتون جوعًا، اختفى الرجال من الدنيا.

– إنك محق يا ابن عنكبوت وضفدع، منذ أفل نجم الأشراف لم يعد هناك رجال، لم يبق إلا التجار، وإني أكرههم.

– هذا سهل الفهم، يا أخي؛ لأنك أيضًا أفلست بسببهم.

– أنا؟ إنه حب الحياة الذي حطمني، يا عبيط، لقد أحببتها، ولكن التاجر يسلبها كل جميل، ولذا لا أطيقه، هذا هو السبب، وليس لأني من النبلاء، ولكن إذا أردت الحقيقة، فأنا لست نبيلًا، بل أنا السابق، ولذا لم أعد أعبأ بشيء أو مخلوق، وأعامل الحياة كما أعامل امرأة خانتني فأحتقرها.

فقال «كومة عظام»:

- أنت تكذب.

فزأر أرستيد كوفالدا، وقد احمر وجهه غضبًا:

- أنا أكذب؟

فأتاه صوت مارتيانوف البارد الحزين:

- لماذا تدين الآخرين؟ التجار، والنبلاء.. ما شأننا بهم؟

وقال الشماس تاراس:

- وترون أننا لسنا سمكًا ولا لحمًا.

وأعقبه المدرس قائلًا بلطف:

- اهدأ يا كومة عظام، لماذا تغرز السيف في الجرح؟

لم يكن المدرس يحب الضوضاء أو الجدال، فعندما تنشب معركة بينهم، تنقبض شفتاه في تكشيرة مؤلمة، ويحاول بهدوء وتعقل أن يصلح كلًّا مع الآخر، فإذا فشل ترك «الصحبة» وانصرف. ولما كان الكابتن يعرف ذلك منه، لذا كان يضبط أعصابه إن لم يكن ثملًا تمامًا، غير راغب أن يفقد في شخصه خير مستمعيه.

وأردف الكابتن بلهجة أخف قائلًا:

- أنا أكرر أني أرى الحياة في يد الأعداء، لا أعداء النبلاء، بل أعداء كل جميل، الذين يسعون وراء الربح، عاجزين عن تجميل الوجود بأي شيء.

فقال المدرس:

- ولكن التجار، على أي حال، خلقوا جنوة والبندقية وهولندا، وتجار إنجلترا، وتجار ستروجانوف.

- وما يهمني من هؤلاء؟ إني أعني يهوذا بتنيكوف، ولو...

فسأله المدرس بهدوء:

- وما يعنيك من أمره؟

- ولكن ألست حيًّا؟ آها! إني كذلك، لذا لا يمكني إلا أن أغضب عندما أرى هؤلاء البرابرة الذين تولوا أمر الحياة يسلبونها كل جمالها.

فقال «كومة عظام» بخبث:

- ويجرؤ على الضحك من غضب الكابتن النبيل، رجل لا عمل له؟

- حسن جدًّا، أوافقك على أن هذا عبط، فلكوني مخلوقًا كان رجلًا يجب أن أنزع من نفسي كل هذه المشاعر التي كانت لي يومًا. ولكن كيف يمكنني أو يمكن لأي واحد منكم أن يدافع عن نفسه إذا ما نزع مشاعره التي كانت له يومًا؟

فقال المدرس مشجعًا:

- الآن أنت تتكلم بتعقل.

- إنا نحتاج مشاعر أخرى، ونظرات جديدة إلى الحياة.. نحن نريد شيئًا جديدًا؛ لأننا نحن أنفسنا جُدُد في هذه الحياة.

فعلق المدرس قائلًا:

- لا شك أن هذا ما نحتاجه.

فتساءل «مصيبة»:

- لماذا؟ أليس كل ما نقوله أو نفكر فيه سواء؟ لم يتبق لنا من العمر كثير، فأنا في الأربعين وأنت في الخمسين، ولا يقل أحد منا عن الثلاثين، وحتى ابن العشرين لا يمكنه أن يتحمل حياة كهذه طويلًا.

فسأله «كومة عظام» ساخرًا:

- وأي نوع من «الجدة» نحن؟

- لقد كان هناك دائمًا شحاذون.

فقال المدرس:

- أجل، وكانوا مسؤولين عن روما.

فقال الكابتن وعيناه تشعان فرحًا:

- أجل، طبعًا.

- روملوس وكريموس أيضًا سيفعلان شيئًا عندما يأتي وقتنا.

فقاطعه كومة عظام وهو يضحك بخبث:

- يزعجان الأمن والسلم.

وضحك ضحكته الشريرة المدمرة، ورددها سمستوف،

والشماس، و«تاراس ونصف»، وبرقت عينا متيور الشاب الساذجتان، واحمرت وجنتاه.

وقال «مصيبة»، وكأنه يدق مسامير في رؤوسهم:

- كل هذا كلام فارغ، هراء!

كان غريبًا سماع هؤلاء المنبوذين من الحياة وهم يتناقشون، قذرين، وثملين من الفودكا، والحنق والسخرية والوضاعة. وكانت هذه الأحاديث عيدًا لقلب الكابتن؛ لأنهم كانوا يتيحون له أن يتحدث أكثر منهم، فيظن نفسه أحسن منهم جميعًا، فلا يمكن للإنسان مهما انحط أن يمنع نفسه عن الشعور السار بأنه أمهر، وأكثر قوة، أو حتى أحسن تغذية من رفقائه. وكان أرستيد كوفالدا لا يشبع من الكلام في الأمور التي تتعلق بالحياة والقدر والإنسان، رغم نفور «كومة عظام» وكوبار وغيرهما من «المخلوقات التي كانت رجالًا» من هذه الأحاديث، فقد كانت الأحاديث السياسية أكثر ملاءمة لهم، فالمناقشات التي تدور حول وجوب غزو الهند أو استسلام إنجلترا يمكن أن تطول ما شاءت، كما أنهم لم يكونوا أقل حماسة في حديثهم عن العداوة الأصيلة في نفوسهم نحو اليهود التي تقضي بمسحهم من على سطح الأرض. وكان «كومة عظام» يتدخل مقترحًا خططًا لا رحمة فيها، لدرجة أن الكابتن الذي يرغب أن يكون الأول في كل جدال كان يتحاشى هذا الموضوع، وكانوا يستفيضون في الحديث بوقاحة عن النساء، ولكن المدرس كان يدافع عن الجنس الآخر دائمًا، ويغضب أشد الغضب إذا

تعدوا حدود الأدب، فيسلمون له بالأمر دائمًا؛ لأنهم يعتبرونه شخصًا ذا مكانة خاصة بينهم، ويرغبون أيام السبت في اقتراض نقوده التي جناها طيلة الأسبوع. وكانت له امتيازات كثيرة؛ فهم لا يضربونه أبدًا في أمثال هذه المناسبات التي ينتهي فيها الحديث بمعركة، وله حق إحضار النساء إلى الوكالة، وهذا امتياز غير مسموح به لأي منهم، كما سبق أن أنذرهم الكابتن قائلًا:

– لا تحضروا نساء إلى منزلي، فالنساء والتجار والفلاسفة هي الثلاث أسباب التي خربتني، ولأجلدن كل من يحضر نساء إلى هنا، ولأجلدن النسوة أيضًا.. وإن رأيت أحدًا يتفلسف فسأحطم رأسه.

وكان يمكنه فعلًا رغم سنه أن يحطم رأس أي إنسان، فقوته لا زالت خارقة، وعلاوة على ذلك فإنه عندما يتعارك يساعده مارتيانوف الذي يقف أثناء المعركة صامتًا وقورًا كالتمثال ظهرًا لظهر مع كوفالدا، ومن ثم أصبحا أداة حرب حصينة مدمرة. حدث ذات مرة أن سكر سيمستوف واندفع نحو المدرس دون أدنى سبب، وانتزع ملء يده من شعره، فأفقده كوفالدا وعيه بضربة من قبضته في صدره، ولما استفاق بعد نصف ساعة، أجبره كوفالدا على أن يأكل شعر المدرس، وقد أكله مفضلًا هذا على أن يُضرب حتى الموت.

وعلاوة على قراءة الجرائد، والعراك والاستغراق في أحاديث عامة، كانوا يشغلون أنفسهم بلعب الورق، ويلعبون دون مارتيانوف؛

لأنه لا يمكنه اللعب دون أن يغش، وقد اعترف بصراحة بعد أن قُبض عليه متلبسًا عدة مرات، قائلًا:

- لا يمكن أن ألعب دون غش، فالغش عادة من عاداتي.

فوافقه الشماس قائلًا:

- إن العادات تنتصر على المرء دائمًا، فلقد اعتدت أن أضرب زوجتي كل أحد عقب القداس، ولا يمكنني أن أصف لكم كم بدا يوم الأحد خاويًا بعد موتها، وقد حاولت أن أكبح نفسي، ولكني في الأحد الثالث ضربت طباختي، فاحتجت وهددت بإبلاغ البوليس، تصوروا فقط لو كانت أبلغت البوليس! وفي الأحد الرابع ضربتها كما لو أنها زوجتي، ثم أعطيتها عشر روبلات وضربتها بعد ذلك بانتظام حتى تزوجت ثانية.

فقاطعه كومة عظام قائلًا:

- أنت تكذب يا شماس! كيف أمكنك أن تتزوج ثانية.

- إيه، هذا ما حدث، كانت تعنى بمنزلي.

فسأله المدرس:

- ألم يكن لك أطفال؟

- خمسة.. واحد مات غرقًا، والأكبر كان صبيًّا لطيفًا، واثنان ماتا بالدفتريا، وإحدى البنتين تزوجت طالبًا وذهبت معه إلى سيبيريا، والأخرى قررت أن تدرس، فماتت في بطرسبرج بالسل، كما قالوا،

أجل، كان لي خمسة من الأطفال، فرجال الكنيسة كثيرو الإنتاج كما تعرف.

وأخذ يوضح السبب، ثم ضحك ضحكة هستيرية، ما كاد يفرغ منها حتى تذكر ألكسي مكسيموفيتش أنه هو أيضًا كانت له ابنة، فقال:

– وأنا أيضًا كانت لي ابنة صبية بدينة.

ولم يستطع أن يتذكر شيئًا آخر، فأجال نظره فيهم، وابتسم ابتسامة من يثقله الإثم، ولزم الصمت.

كان أولئك الرجال يتحدث بعضهم إلى بعض بأقل ما يمكن عن ماضيهم، وبصورة عامة ولهجة تتفاوت استهتارًا وعدم اكتراث، فتذكر الماضي يقتل كل طاقة الحاضر، وكل أمل المستقبل.

كانت هذه «المخلوقات التي كانت رجالًا» تجتمع أيام الخريف البارد في حانة فافيلوف حيث يعرفهم الناس جيدًا، ويهابونهم كلصوص فتوات، ويحتقرونهم كسكيرين معربدين، ولكن كان الاعتقاد السائد فيهم أنهم أذكياء ماهرون، ولذا كانوا محترمين مسموعي الكلمة.

كانت حانة فافيلوف منتدى الشارع «والمخلوقات التي كانت رجالًا» أعضاءه المثقفين الذين يلقون كل حفاوة في أمسيات السبت وصباحيات الأحد وقت ازدحام الحانة بالرواد، فقد كانوا يأتون إلى هذا الحشد البائس من سكان الشارع ومعهم جوهم الخاص الذي

كان فيه شيء يضيء حياة الرجال المنهوكين الذين حيرهم الصراع مع الحياة وأدمنوا الفودكا، ونبذهم المجتمع، مثل سكان وكالة كوفالدا، فمقدرتهم على الكلام في كل الموضوعات، وسخريتهم من كل شيء، وجسارتهم في إبداء آرائهم، وإجاباتهم البديهية اللاذعة، وشجاعتهم أمام الأشياء التي تخيف الشارع كله... كل هذه الصفات كانت تخلب رفقاءهم، وعلاوة على ذلك فهم خبيرون بالقانون، قادرون على إسداء النصح وكتابة الشكاوى التي تساعد على مخالفة القوانين والفرار من عقوبتها، وكانوا يكافأون مقابل هذا كله بالفودكا وكلمات الإعجاب تملقًا لمواهبهم.

وكانت عواطف سكان الشارع موزعة قسمين: الأولون مع كوفالدا الذي يعتبرونه فارسًا حقًّا أشجع من المدرس، والآخرون كانوا مقتنعين بأن المدرس رجل شجاع أيضًا خير من الكابتن في كل شيء. المعجبون الأولون يوجدون بين حشد السكيرين المدمنين، واللصوص، والأوغاد الصعاليك الذين لا مفر لهم من عبور الطريق المؤدي من الشحاذة إلى السجن. أما المعجبون بالمدرس فكانوا رجالًا أكثر اتزانًا، لا زالت لهم أماني، ولا يزالون يؤملون في أشياء أحسن وحياة أفضل، ولا ينفكون يدبرون أمورًا ويرسمون خططًا.

ويمكن أن تفهم طبيعة علاقات المدرس وكوفالدا بسكان الشارع من الحادثة الآتية:

كانوا يتجادلون في الحانة يومًا في أمر القرار الذي أصدرته السلطات البلدية بخصوص الشارع، والذي يقضي بأن يردم السكان حفر الشارع وخنادقه، بشرط ألا يستعملوا لهذا الغرض الخبث والسباخ، بل النفايات والحجارة المهشمة المتخلفة عن البناء.

فصاح موكاي أنسيموف شاكيًا، وكان يبيع أرغفة من الدقيق الأبيض تخبزها زوجته:

– من أي مكان على الأرض أحصل على هذه الحجارة المهشمة؟ بينما الشيء الوحيد الذي أردت أن أبنيه كان «عشة» عصافير لم أبنها حتى الآن.

وقرر الكابتن أن يدلي برأيه في الموضوع، فكور قبضته على المنضدة وصاح ليلفت إليه الأنظار:

– لا تحرك يدًا ولا قدمًا، دع الشارع مخروبًا...

– ولكن بعض البيوت تكاد تتداعى.

– دعها تنهد، ما شأنك؟ عندما تقع اطلب نجدة من المدينة، فإن لم تنجدك، ارفع قضية أمام المحكمة، من أين يأتي الماء؟ أليس من المدينة؟ إذَنْ المدينة مسؤولة عن تدمير البيوت.

– سيقولون إن الماء يأتي من المطر.

– وهل يدمر المطر منازل المدينة؟ هيه؟ إنهم يأخذون ضرائب منك، ولكنهم لا يدعونك تطالب بحقوقك، ويدمرون حياتك

وملكك، وفي نفس الوقت يجبرونك على إصلاحهما... كلام فارغ!

ويقتنع نصف سكان الشارع بكلام كوفالدا، ويقررون الانتظار حتى يمحو المطر منازلهم. أما الآخرون، وهم أكثر حيطة، فيجدون في المدرس رجلًا يكتب لهم شكوى مقنعة إلى سلطات المدينة يدرج فيها أسبابًا قوية لرفض السكان تنفيذ القرار لدرجة أن تجيبهم السلطات فعلًا إلى شكواهم، فتبيح لهم استخدام النفايات الناتجة من نزح بالوعات المجاري، وترسل لهم خمسة أحصنة من فرقة المطافئ لنقلها. وزيادة على ذلك، ترى ضرورة إرساء بالوعة للمطر في الشارع في أقرب فرصة. وقد زادت أمثال هذه الشكاوى وغيرها محبة المدرس بينهم، فعلاوة على كتابة الشكاوى كان ينشر ملحوظات في الجرائد، فقد لاحظ زبائن فافيلوف مرة أن رنجة الحانة وبعض مأكولاتها ليست كما يجب، ولم يمض يومان حتى رأوا فافيلوف واقفًا أمام دكانه، والصحيفة في يده، يعتذر علنًا أمام الجميع:

– هذا حق، يجب أن أعترف أني بعت مأكولات عفنة، ورنجات غير طازجة، وكرنب.. حسنًا الكرنب أيضًا كان بائتًا. لا يخفى عليكم أن كل إنسان يريد أن يضع قدر ما يستطيع قطعًا من ذات الخمسة كوبكات في جيبه، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لم أنجح لأني كنت طماعًا جشعًا. لقد كسبت فعلًا، ولكن الرجل الماهر كشف

عن طمعي، إذَنْ نحن متفقون...

وأثر هذا الاعتراف في الناس تأثيرًا عظيمًا، وأتاح أيضًا لفافيلوف أن يتخلص من رنجاته وكرنبه العفن؛ لأن التأثر اشتد بهم فلم يلحظوا طعم ما يأكلونه.

وكانت هذه الحادثة ذات فائدة كبيرة للمدرس؛ لأنها لم تزد محبته فقط، بل ربطته في نظر سكان الشارع بسلطان الصحافة وقوتها.

وعلاوة على ذلك كان المدرس كثيرًا ما يلقي محاضرات في الأخلاق العملية في الحانة، فذات يوم قال لياشكا تورين مبيض المنازل:

- لقد رأيتك يا ياكوف تضرب امرأتك.

وكان ياشكا من عادته أن يفقد اتزانه بعد قدحين من الفودكا، ويصبح في حالة تهور شيطانية، فتطلع إليه الذين حوله، متوقعين أن يرفس المائدة وخيم الصمت على الجميع.

فسأله ياشكا:

- أرأيتني حقًّا؟ وكيف أحببت الأمر؟

فأجابه المدرس:

- لم أحبه.

وكانت لهجته جدية لدرجة أن لزم الجميع الصمت متوجسين.

فقال ياشكا بوقاحة تشعر أن المدرس لن يستطيع الانتصار عليه:

- آسف، كنت أفعل أقصى ما بوسعي.. لقد أخذت المرأة كفايتها، فلم تنهض من الفراش حتى الآن.

فأجابه المدرس وهو يرسم صورًا على المنضدة مستغرقًا في التفكير:

- ألا تعرف يا ياكوف لماذا لم أحبه؟ دعنا نعالج الأمر من وجهة عامة ونتبين حقيقة ما تفعله، وما يترتب عليه من نتائج. امرأتك حامل، ولقد ضربتها الليلة الماضية على جنبيها وصدرها، وهذا يعني أنك لم تضربها فقط، بل ضربت الطفل أيضًا، فربما تكون قتلته، وقد تموت زوجتك أو تمرض مرضًا خطيرًا. وليس مما يسرك أن تتحمل عناء رعاية امرأة مريضة، فهذا أمر متعب، ويقتضي نفقات باهظة، لأن المرض يحتاج دواء، والدواء نقودًا، فإذا كنت لم تقتل الطفل، فربما تكون كسحته، فيولد مشوهًا، غير متوازي الجانبين أو أحدب الظهر، وهذا يعني أنه لن يكون قادرًا على العمل، بينما من المهم جدًّا بالنسبة لك أن يصير عاملًا قويًّا، وحتى إذا وُلِدَ مريضًا، فإن هذا سيكون سيئًا للغاية؛ لأنه سيمنع أمه عن العمل، ويحتاج دواء. أرأيت كيفت تؤذي نفسك؟ إن الرجال الذين يعيشون من العمل الشاق يجب أن يكونوا أقوياء، وأولادهم أقوياء أصحاء أيضًا، مضبوط أم لا؟

فأعلن المستمعون موافقتهم قائلين:

- مضبوط.

وقال ياشكا، وقد أخافه كلام المدرس:

- ولكن كل هذا لا يمكن أن يحصل، فهي ضخمة وصحيحة البنية، ولم يمكنني أن أصل إلى الطفل، إنها جنية، أقسم لك!

ثم صاح غاضبًا:

- إنها تأكلني كما يأكل الصدأ الحديد، كلما واتته الفرصة!

فقاطعه صوت المدرس الحزين قائلًا:

- يلوح لي يا ياكوف أنه لا يمكنك إلا أن تضرب زوجتك، وأن لديك أسبابًا قوية لتفعل هذا... ولكن أقول لك إنه ليس طبع زوجتك الذي يجعلك تضربها بهذا الإهمال... بل حياتك المظلمة المؤلمة.

فصاح ياكوف:

- كلامك حق، إننا نعيش فعلًا في الظلام، كأننا نحيا داخل مدخنة.

- أنت غضبان من الحياة، ولكنك تسقط غضبك على زوجتك، أقرب الناس إليك، وتسبب لها كل هذا العذاب لمجرد أنك أقوى منها؛ ولأنها تحت تصرفك ولا يمكنها مفارقتك. ألا ترى أنك مخطئ؟

- هذا صحيح.. ليأخذها الشيطان! ولكن ماذا أفعل؟ أو لست رجلًا مقبلًا على كل شيء؟

- هذا حق! أنت رجل... ولكني أريد فقط أن أخبرك أنه إذا لم تستطع إلا ضربها، فليكن ضربك لها بحذر حتى لا تؤذي صحتها أو

صحة الطفل، كما أنه ليس من المفيد أن تضرب امرأة وهي حامل، لا على بطنها أو جنبها وصدرها، اضربها على رقبتها، أو خذ حبلًا واضربها على موضع لين من جسمها.

وأنهى الخطيب حديثه وتطلع إلى مستمعيه بعينيه العميقتين المظلمتين، كأنه يعتذر لهم عن جريمة مجهولة.

ولقد استجابوا للحديث بكل قلوبهم، وفهموا أخلاقيات هذا المخلوق الذي كان رجلًا، أخلاقيات الحانة، وكثيرًا من المصائب.

- حسنًا، يا أخينا ياشكا، هل فهمت؟ أرأيت كم هو صادق في هذا كله؟

لقد فهم ياشكا أنه يجب أن يكون حريصًا عندما يضرب زوجته، وإلا أضرَّ بها، وكان صامتًا يجيب على نكات رفاقه بابتسامات مرتبكة.

وتفلسف الخباز موكاي أنيسيموف قائلًا:

- وعلاوة على هذا، فالزوجة! الزوجة... صديقة.. فإذا نظرنا إلى المسألة من هذه الوجهة، نجد أنها أشبه بالقيد، مقيدة بك مدى الحياة.. وأنكما أشبه بعبدين في سفينة من تلك السفن القديمة التي كان يسيرها العبيد.. فحاول أن تتقدم معها خطوة خطوة، وإلا أحسست بالقيد.

فقال ياكوف:

- رويدك.. أنت أيضًا تضرب زوجتك.

- وهل قلت إني لا أضربها؟ إني أضربها.. فليس ثمة شيء في

متناول يدي غيرها.. أم تريدني أن أضرب قبضتي في الحائط عندما يتملكني الغضب؟

فأجابه ياكوف:

- وهذا ما أشعر به أنا أيضًا.

- أي حياة غبية ضيقة نحياها يا إخوان؟ ليس ثمة شيء نتعلق به!

وقال أحدهم مازحًا:

- وحتى عندما يضرب الرجل زوجته يجب أن يكون على حذر.

ويصفع المطر النافذة، وتعدو الرياح في الخارج معولة، والحانة عابقة بدخان التبغ، ولكنها دافئة، بينما الشارع بارد ورطب ومظلم، ومن حين لآخر تلطم الرياح النوافذ مهددة، كأنها تأمر هؤلاء الرجال أن يخرجوا ويتناثروا كالتراب على وجه الأرض. مرة يسمع في عوائها أنين يائس كظيم، ومرة أخرى -والبرد يدفعها- يتردد في عويلها صدى ضحكة قاسية. هذه الموسيقى تملأ المرء بأفكار قاتمة عن الشتاء المقترب، عن الأيام المتعبة المضجرة المحرومة من الشمس، والليالي الطويلة، والحاجة إلى الملابس المدفئة والطعام الكثير. إن النوم عسير في ليالي الشتاء بمعدة فارغة.. الشتاء يقترب.. فكيف نحياه؟

كان هذا التشاؤم القاتم يزيد ظمأ سكان الشارع إلى الشراب، وكثرت تنهدات «المخلوقات التي كانت رجالًا» وزادت عمقًا،

وغزرت تجعيدات جباههم، وأصبحت أصواتهم أغلظ وأخشن، وسلوك بعضهم إزاء بعض أشد غلظة وجفاء. وفجأة يتفجر منهم غضب عنيف، موقظًا بينهم قسوة المضطهدين الذين أضناهم حظهم العاثر، فيأخذون في ضرب بعضهم بعضًا بوحشية، فإذا فرغوا، شربوا ثانية حتى لا يعد ثمة شراب لدى فافيلوف، وهكذا يقضون أيام الخريف في الغضب والتعاسة البكماء التي تغمر قلوبهم، لا يعرفون كيف يجدون منفذًا من هذه الحياة البغيضة؟ وفي خوف من أيام الشتاء أقسى وأمر.

وكان كوفالدا في مثل هذه المناسبة يتقدم لمساعدتهم قائلًا:

– لا تفقدوا الثقة بأنفسكم يا إخوان! فلكل شيء نهاية، وهذه أهم صفة للحياة، سيمضي الشتاء ويتبعه الصيف.. فصل الحياة، عندما تجد حتى الغربان نصيبها من الجعة كما يقولون. ولكن أحاديثه لم تكن ذات تأثير، فروية من أنقى ماء وأصفاه لا تشبع جائعًا.

وكان الشماس تاراس يحاول أن يسلي أصدقائه بإنشاد أغنياته وقص قصصه، فيصيب بعض النجاح، وكانت محاولته هذه تنتهي أحيانًا بعربدة وحشية يائسة في الحانة، فيغنون ويضحكون ويرقصون، ويظلون على حالتهم هذه ساعات طوال كالمجانين يغمرهم المرح، حتى ينال منهم التعب فيسقطون ثانية في أحضان التشاؤم واليأس، ويجلسون على موائد الحانة، في دخان المصباح الأسود، وسُحُب التبغ دائخين قذرين يحدث بعضهم بعضًا بتراخٍ، ويصغون إلى عويل

الرياح الوحشي، لا يفكرون إلا في الحصول على قدر آخر من الشراب ليميتوا شعورهم بالحياة.

ويصبون على العالم كله كراهية يائسة، وكل منهم ممتلئ نفورًا واشمئزازًا من أخيه.

كل شيء في هذه الدنيا نسبي، فلا يمكن أن ينحدر الإنسان إلى حالة من السوء ليس هناك أسوأ منها.

وذات يوم صاف كان الكابتن أرستيد كوفالدا جالسًا كعادته، على مقعده عند باب الوكالة ينظر إلى أحجار البناء الذي شيده التاجر بتنيكوف بجوار حانة فافيلوف، مستغرقًا في التفكير. كان هذا البناء الذي لا يزال ناقصًا والذي قصد به أن يكون مصنعًا للصابون -قذى في عيني الكابتن- بفوهاته المظلمة العارية التي ستكون نوافذ، والثقالات التي تحيط به من السطح إلى الأساس.

كان مدهونًا بلون أحمر كأنه الدم، فبدأ أشبه بآلة تعذيب فتحت فكين جائعين مستعدة لأن تمتص وتبتلع أي شيء يلقى لها. وبدت حانة فافيلوف الخشبية القاتمة، بسطحها المتداعي المغطى بالطحلب مائلة على أحد جدران المصنع، كأنها طفيلي يتعلق به. وفكر الكابتن أنهم لا بد مزيلين سريعًا هذه المباني القديمة محلين أخرى جديدة محلها. وحدَّث نفسه: «إنهم سيزيلون الوكالة أيضًا، فعلى المرء أن يبحث عن غيرها، ولكن من أين لنا بوكالة مريحة رخيصة كهذه؟ من المؤسف حقًّا أن يترك الإنسان مكانًا اعتاده، لمجرد أن تاجرًا خطر له

أن يصنع شموعًا وصابونًا».

وتمنى الكابتن لو استطاع أن يؤذي عدوه ولو لمدة وجيزة، أوه! كم يكون سروره!

لقد حضر البارحة إيفان أندريفتش وابنه ومقاول إلى فناء الوكالة، فقاسوه ووضعوا بعض أعواد خشبية هنا وهناك انتزعها متيور بأمر الكابتن ورماها بعيدًا عقب انصرافهم.

وأمكن الكابتن أن يتصور التاجر أمامه ثانيًا.. ضئيلًا يابسًا، في سترة رسمية سوداء بذيل، وقبعة من القطيفة، وحذاء طويل يبهر النظر، نحيل الوجه ناتئ عظام الوجنتين، ولحية بشكل الإسفين يخالطها الشيب، وجبهة عالية تغمرها التجاعيد، تلمع تحتها عينان ضيقتان، نصف مغمضتين ولكنهما يقظتين... وأنف حادة غضروفية، وفم صغير رقيق الشفتين... مظهر يجمع في نفس الوقت بين تقي جشع ووغد محترم.

«عليه اللعنة – ابن الثعلب والخنزير!».

سبه الكابتن من بين أسنانه، مستعيدًا ذكرى أول لقاء له ببتنيكوف، وقت أن جاء ومعه أحد السماسرة ليبتاع البيت، فلما وقعت عيناه على الكابتن سأل صاحبه:

– أفي هذه الخرابة يسكن هذا؟

ومن ذلك اليوم، أي من سنة ونصف مضت، والمنافسة حادة بينهما على أيهما يمكنه شتم الآخر أحسن من أخيه. والبارحة كان

ثمة «مناوشة خفيفة بكلمات ساخنة» كما يدعو الكابتن محادثاته مع بتنيكوف، فقد اقترب التاجر منه ومس قبعته كأنه يصلح من وضعها:

– ألا تزال ساكنًا هنا؟

فسأله الكابتن بنفس اللهجة، وبحركة من ذقنه دون أن يحرك غليونه من جانب فمه إلى الجانب الآخر:

– وأنت ألا تزال تأتي إلى هنا؟

فحدجه التاجر بنظرة خبيثة قائلًا:

– حسنًا، بما أن لديَّ نقود، يمكن أن أطرق أي مكان في العالم؛ النقود تطلب أن تنفق، ولذا أطلق لها يدي.

فأجابه كوفالدا وهو يكبح رغبته في شق بطنه:

– إذَنْ، أنت الذي تخدم النقود، لا هي التي تخدمك.

– أليس الأمر سواء؟ النقود تسوي كل شيء، ولكنك إذا كنت مفلسًا...

ونظر إلى الكابتن نظرة شفقة متصنعة وقحة، فارتفعت شفة الأخير كاشفة عن أسنان كبيرة ذئبية، وأجابه بصوت يقطر كرهًا:

– ذوو المواهب والضمير، يمكنهم أن يعيشوا من دونها، فالنقود تقبل على المرء عادة عندما ينام ضميره، فكلما ضعف الضمير زادت النقود!

– هذا صحيح، ولكن هناك رجال لا ضمير لهم ولا نقود.

فسأله كوفالدا بسذاجة:

- أليس ذلك ما كنته وأنت شاب؟

فتلوى منخارا محدثه، وتنهد إيفان إندريفيتش، وقد أغمض عينيه نصف إغماضة، وقال:

- أوه! عندما كنت صغيرًا كان عليَّ أن أعاني مصاعب كثيرة...

- أظن ذلك.

- إنك لا تعرف كيف اشتغلت...

- وجعلت الآخرين يشتغلون فوق طاقتهم.

- أتعني أمثالك من النبلاء؟ هذا صحيح، فكثير منهم كانوا يستجدون الرحمة.

فقال الكابتن بصوت أشبه بالفحيح:

- لقد أتيت هنا للسرقة لا للقتل على ما أظن.

فاخضر وجه بتنيكوف وغير مجرى الحديث بسرعة قائلًا:

- إنك مضيف لا تحسن الضيافة، فها أنت ذا جالس بينما ضيفك واقف.

فقال كوفالدا:

- ليس ثمة شيء يمنعه من الجلوس.

- ولكن على أي شيء أجلس؟

- على الأرض.. فهي تتحمل كل القاذورات.

فقال بتنيكوف بهدوء:

- أنت نفسك دليل على ذلك.

ثم أردف:

- وأخبرك أن هذا وقت تركك وحديثك.

وأطلقت عيناه سهامًا قوية ونظرات مسمومة، وانصرف تاركًا كوفالدا تحت تأثير لذيذ بأن التاجر خائف منه، فلو لم يكن خائفًا منه لطرده من الوكالة من أمد بعيد؛ فالخمسة روبلات في الشهر لا يمكن أن تكون سببًا في الإبقاء عليه حتى الآن. وتتبع التاجر بعينيه وهو يدور حول المصنع، ويروح ويجيء بين الثقالات، وامتلأت نفسه رغبة في أن يقع وتتهشم عظامه. وجلس يتخيل له ألوانًا من النكبات، ويراقبه وهو يتسلق الثقالة كأنه عنكبوت في عشه. وقد حدث في الليلة الماضية أن هوى لوح من خشب الثقالة والتاجر فوقه، فقفز مرتبكًا مذعورًا، ولكن الأمر انتهى إلى لا شيء يدعو للأسف.

واليوم كان البناء، كعادته، يرتفع أمام عيني كوفالدا شاهقًا، موطدًا بالأرض بقوة، كأنه يمتص عصيرها، وبدأ بجدرانه ذات الفجوات كأنه يضحك ببرود من الكابتن، والشمس تصب أشعتها عليه كريمة كما تفعل مع خرائب الشارع.

قال الكابتن وهو يقيس جدران المصنع بعينيه مفكرًا:

- ليأخذ الشيطان البناء.. لو صح تقديري.

وقفز من مقعده وجرى منتشيًا من السرور الذي انتابه عندما برقت الفكرة في ذهنه.

واندفع إلى الحانة فقابله فافيلوف أمام البار، وحياه تحية الصديق قائلًا:

- أتمنى لسعادتك كل صحة وعافية.

كان فافيلوف رجلًا متوسط الطول، ذا رأس يشوبه الصلع، تتوجها خصلة من الشعر الأشيب، وشارب صغير منتفش كأنه فرشاة أسنان. وقف نظيفًا في سترته الجلدية، وكل حركة من حركاته تشير إلى أنه جاويش سابق.

وصاح فيه كوفالدا مطالبًا نافد الصبر:

- إجوركا، أعندك حجة أملاكك والخريطة؟ أعندك؟

فتطلع إليه فافيلوف مرتابًا بعينيه اللصتين الصغيرتين وتمعن جيدًا وجه الكابتن، الذي بدا عليه تعبير غريب.

فصاح الكابتن ضاربًا المنضدة بقبضته وهو جالس على مقعد بجوارها:

- أرينيها.

فسأله فافيلوف، وكان يعلم أن من الخير له ألا يسلم برغبات الكابتن عندما يكون ثائرًا إلى هذا الحد.

- يا مغفل! هاتها أولًا.

فجعد فافيلوف جبهته، ورفع عينيه إلى السقف متسائلًا:

- أين هي الأوراق التي هي ملكي؟

ولم يكن في السقف جواب عن سؤاله، لذا خفض ناظريه إلى بطنه، وأخذ ينقر على البار بطريقة متعبة مضجرة:

فصاح الكابتن الذي لم يكن يحبه كثيرًا، وهو يفكر أنه خير لمثله أن يكون لصًّا لا خمورجيًّا:

- لا يفيدك أن تتغابى هكذا.

- أوه! أجل! تذكرت الآن، يا أرستيد فوميتش، لقد تركتها في محكمة المنطقة عندما ابتعت البيت.

- لا أريد كلامًا فارغًا يا إجوركا! خير لك أن تريني الخريطة والحجة، وكل ما لديك في الحال، فقد تقبض بضع مئات من الروبلات بسببها، أفهمت؟

لم يفهم فافيلوف شيئًا، ولكن الكابتن تكلم بهذه اللهجة الجدية المقنعة، فأضاءت عينا الجاويش بحب الاستطلاع، وأخبره أنه سيرى ما إذا كانت الأوراق في الدرج، وغاب من باب خلف البار.

وعاد بعد دقيقتين والأوراق في يده، وعلى وجهه تعبير بالدهشة البالغة، قائلًا:

- ها هي الأوراق الملعونة!!

ولم يستطع كوفالدا أن يمنع نفسه عن شتمه، وهو يختطف الرزمة الزرقاء من بين يديه، ونشر الأوراق على المائدة، فأثار فضول فافيلوف إلى أقصى حد، وأخذ يقرأها ويفحصها ويزمجر في آن واحد. وأخيرًا نهض مصممًا، وذهب إلى الباب، تاركًا الأوراق كلها على المائدة، وقال لفافيلوف:

- لا تلمسها!

ولكن فافيلوف لمسها، ووضعها في صندوق النقود، وقفله بالمفتاح، وتحسس القفل ليرى مبلغ متانته، ثم حك رأسه الأصلع مفكرًا، وخرج قاصدًا الكابتن، فأبصره يقيس مقدم البناء، فراقبه بقلق وهو يمد أصابعه ويأخذ في قياس المكان نفسه ثانية، وقد بدا عليه التفكير والاكتفاء بالنتيجة، فجمد وجه فافيلوف، ثم بدت عليه الحيرة، إلى أن ظهرت عليه ابتسامة عريضة آخر الأمر، وصاح عندما أقبل عليه الكابتن:

- أهذا ممكن يا أرستيد فوميتش؟

- طبعًا ممكن؛ فهناك أكثر من قدم مأخوذ من المقدمة وحدها، أما بالنسبة إلى العمق فسأرى في الحال.

- العمق.. اثنان وثلاثون قدمًا.

- إذَنْ، لقد خمنت الصواب أيها الفاجر المفضوح.

فصاح فافيلوف وقد أخذه المرح:

– طبعًا يا أرستيد فوميتش! ولكن أي عينين لك، بشرفي! إنك تستطيع أن ترى ما تحت الأرض، إنك تستطيع!

وبعد عدة دقائق كان كلاهما جالسًا إزاء الآخر في الحانة، والكابتن يحدث فافيلوف، وهو يجرع كميات كبيرة من الجعة قائلًا:

– ها قد رأيت أن إحدى جدران المصنع تقوم على أرضك، فلتكن قاسيًا، سيحضر المدرس الآن، ونكلفه بأن يرفع دعوى عليه، أما الخسائر التي لحقتك من جراء هذا، فإننا سنحدد مبلغًا عاديًّا جدًّا؛ حتى لا نضيع نقودًا كثيرة قيمة الرسوم، ولكننا سنطلب أولًا هدم هذا المصنع، يجب أن تفهم، يا حمار، أن هذا ما يُسمَّى بالاعتداء على ملكية الغير. لقد أتاح لك الحظ فرصة رائعة فأحسن استغلالها، وستكلفه إزالة أو نقل بناء كهذا قدرًا كبيرًا من النقود، فيطلب الصلح، وتكون فرصة الضغط على يهوذا، سنحسب بالتفصيل كم يكلفه هذا المصنع، والحجارة المهشمة، والأساس، وكل شيء! حتى الوقت سنحسبه، فاطلب منه عندئذ ألفين من الروبلات.

فصاح فافيلوف، وقد اتسعت عيناه والتمعتا بنور الجشع:

– لن يدفع هذا المبلغ أبدًا.

– كلام فارغ! سيدفع.. استخدم حقوقك.. ماذا يمكنه أن يفعل؟ وهل يهده؟! ولكن انظر إليَّ يا إجوركا، حذاري أن يخدعك، إنهم واثقون من أنهم سيحملونك على بيع ما تملك، ولكن لا تبع نفسك رخيصة، قد يهددونك، ولكن اعتمد علينا.

كانت عينا الكابتن مضاءتين بسعادة وحشية، ووجهه المحتقن غضبًا ملتويًا بعصبية، لقد اشتعل طمع فافيلوف، وتنبه إلى ضرورة السرعة في معالجة الأمر، وانصرف في حالة عقلية ثملى بالنصر.

* * *

ما أقبل المساء حتى أحيط الجميع علمًا باكتشاف الكابتن، وتجمعوا يتداولون في مستقبل بتنيكوف متنبئين، ومصورين بألوان زاهية غضبه منه ودهشته عندما يسلمه «المُحضر» إعلان القضية. وشعر الكابتن أنه بطل، وكان سعيدًا وكل أصدقائه في غاية السرور، وجلست الكومة الهائلة من الوجوه المظلمة القذرة في الفناء تعبر عن سرورها باستعراضات صاخبة. لم يكن أحد منهم يجهل التاجر بتنيكوف الذي يمر بهم كل يوم، مغمضًا عينيه نصف إغماضة، لا يعيرهم من الالتفات أكثر مما يعير نفايات الشارع، تفوح منه رائحة التخمة التي أثارت حقدهم أكثر من أي شيء آخر. وها أحدهم ضربه ضربة قاصمة في ماله وكبريائه! ألم يكن ذلك داعيًا كافيًا لسرورهم. كان للكراهية سحر خاص على هؤلاء الرجال، فقد كانت السلاح الوحيد في أيديهم.

ولقد تعودوا كراهية لاشعورية غامضة -لكنها حادة- للمتخمين والأثرياء المتأنقين، وقضى سكان الوكالة أسبوعين في انتظار ما ستفسر عنه الدعوى، ولكن بتنيكوف لم يزر بناءه خلال هذه المدة؛ فعرفوا أنه ليس في المدينة وأن الإعلان لم يصله بعد. واستشاط

كوفالدا غضبًا من بطء إجراءات المحكمة المدنية، لا شك أن أحدًا لم ينتظر التاجر بنفاد صبر مثل هذا الصعلوك الفقير.

وغنى الشماس تاراس، مريحًا ذقنه على راحته، وملقيًا نظرة ساخرة إلى التل:

إنه لا يحلم بالمجيء، أوه يا حبيبي.

لا يحبني، لا يحبني.

أخيرًا ظهر بتنيكوف وابنه ذات مساء في عربة جديدة، وكان الأخير شابًّا وردي الخدين، يرتدي معطفًا طويلًا ونظارة سوداء، وربطا الحصان في عامود الثقال، وأخرج الابن آلة قياس ناولها لوالده، وأخذا يقيسان الأرض وكلاهما صامت مهموم.

وتزاحم كل الموجودين في الوكالة وقتئذ على البوابة ليراقبوهما ويعبروا عن شعورهم بصوت عال.

قال الكابتن وهو يضحك عاليًا بين حاشيته، ويتقبل تمتمات متنوعة على سبيل الموافقة:

– إن عادة السرقة غريبة، فقد يسرق المرء دون قصد، فيفقد بذلك أكثر مما حصل عليه.

فصاح بتنيكوف آخر الأمر بعد أن غاظته ضحكاتهم:

– خذ حذرك، أيها الشيطان، لئلَّا أضعك في سجن المحكمة جزاء لك على كلامك.

فأنذره الكابتن قائلًا:

- لا يمكنك أن تفعل شيئًا دون شهود... ولا يستطيع ابنك أن يشهد معك.

فهز بتنيكوف قبضته نحوه قائلًا:

- خذ حذرك على أي حال، فلا بد أن تنالك العدالة يومًا.

أما ابنه فكان مستغرقًا في القياس، فلم يلحظ المخلوقات القاتمة وهي تشع بهذا السرور الشرير الناتج عن إضافة متاعب إلى أبيه، بل لم يلق نحوهم نظرة واحدة.

وقال كومة عظام متهكمًا، وهو يراقب حركات بتنيكوف الصغير:

- العنكبوت الصغير روحه في يده.

وبعد أن قاسا ما شاءا، شد إيفان أندريفيتش حاجبيه صامتًا، ودخل المركبة التي سارت به.

وذهب ابنه إلى حانة فافيلوف بقدم ثابتة، واختفى خلف الباب.

فتساءل كوفالدا:

- هوه، هوه! يا له من لص صغير عنيد! ماذا سيحدث؟ أنا مندهش.

فقال كومة عظام، وعلى وجهه علامة الاقتناع، ومص شفتيه كأن الفكرة سرته كثيرًا:

– أتقول ماذا سيحدث؟ سيشتري بتنيكوف الصغير الأرض من فافيلوف.

فسأله كوفالدا جادًّا:

– وهل أنت مسرور من ذلك؟ أأنت مسرور؟

فأوضح كومة عظام، وقد أرخى جفنيه، ودعك يديه مسرورًا:

– إني أسر دائمًا عندما أرى تقديرات الآخرين تخيب.

فبصق الكابتن على الأرض، ولزم الصمت، ووقفوا جميعًا عند البوابة يراقبون باب الحانة صامتين.

مر عليهم ما يقرب من ساعة وهم على هذه الحال، ثم فتح باب الحانة وخرج بتنيكوف هادئًا كما دخل، وقف لحظة ليسعل ويصلح ربطة عنقه، ثم نظر إلى الرجال الذين كانوا يتتبعون حركاته بأعينهم، وسار في شارع المدينة.

وراقبه الكابتن لحظة، ثم تحول إلى كومة عظام قائلًا بخشونة:

– ربما تكون محقًّا يا ابن اللعينة! إن لك دخلًا في كل أمر شرير. أجل! فوجه ذلك المهرج الصغير يظهر أنه حصل على ما يريد.. ترى كم أخذ منه إجوركا؟ من الواضح أنه أخذ شيئًا.. إنه وغد مثلهم.. ملعون أنا إذا كنت لم أرتب الأمر كله له! من العسير أن يتبين الإنسان خطأه.. أجل! الحياة ضدنا جميعًا يا إخواني التعساء.. حتى إذا بصقت على عدوك تزداد البصقة حجمًا وترتد إليك.

وبعد أن هون على نفسه بهذه الفكرة، التفت إلى حاشيته التي كانت خائبة الأمل مثله؛ لأنها عرفت أن ثمة اتفاقًا تم بين بتنيكوف وفافيلوف، فالفشل في إيذاء إنسان أشد هوانًا من الفشل في إسداء جميل إليه؛ لأن الأذى أسهل وأبسط.

وقال وهو ينظر إلى الحانة بغيظ:

- حسنًا لماذا نتلكأ هنا؟ ليس أمامنا شيء ننتظره.. ما عدا المكافأة التي سأحصل عليها من إجوركا.

وابتسم كومة عظام محزونًا، وقال:

- إذَنْ ستنتهي حياتنا الهادئة تحت سقف يهوذا. سيطردنا يهوذا.

فسأله الكابتن:

- علام تضحك يا سجان؟

- إلى أين أذهب عندئذ؟

فأجابه الكابتن مفكرًا، وهو يدخل وكالته:

- ذلك يا ملاكي سؤال سيجيبك عليه القدر، فلا تتعب نفسك.

وتبعته المخلوقات التي كانت رجالًا بتراخ.

وقال الكابتن وهو يخطو بينهم:

- ليس أمامنا إلا أن ننتظر اللحظة الفاصلة، فعندما يطردوننا نبحث لأنفسنا عن ملجأ جديد. ولكن الآن.. لا فائدة من أن نضر

أنفسنا بالتفكير، إن المرء يصبح في أوقات الأزمات أوفر نشاطًا.. آه، لو لم تكن الحياة أزمة، وكل لحظة فيها تدفعنا إلى الارتعاد فرقًا على حياتنا.. يا إلهي! لكانت أوفر جمالًا والرجال أكثر أهمية!

فقال كومة عظام مبتسمًا:

- ذلك يعني أن يقطع الناس بعضهم رقاب بعض بشر أزيد.

فسأله الكابتن محتدًّا -إذ لم يكن يحب أن يسمع غيره يوضح أفكاره-:

- حسنًا، وماذا في ذلك؟

- أوه! لا شيء، إنك محق، فعندما يريد المرء الوصول سريعًا إلى مكان ما، يلهب ظهور الخيل بالسياط، ويشعل النار في المركبة.

- حسنًا، دع كل ما على الأرض يذهب إلى الشيطان بأسرع ما يمكن، فأنا واثق من أني سأكون مسرورًا إذا ما تناثرت الأرض ومن وما عليها أو التهمتها النار، ما دمت سأبقى عليها وحدي أراقب الآخرين وهم يحترقون.

فابتسم كومة عظام قائلًا:

- أنت مخلوق خطر.

- حسنًا! وماذا في ذلك؟ إني.. كنت رجلًا.. والآن أنا منبوذ.. وهذا يعني أنه لا ارتباطات لي ولا واجبات عليّ؛ أي أني حر في أن أبصق على كل شيء.. فطبيعة حياتي الحالية تعني نكران الماضي،

والتخلي عن كل رابطة تربطني بالمتخمين والمتأنقين الذين ينظرونني باحتقار؛ لأني دونهم في هذين الأمرين. يجب أن أنمي شيئًا جديدًا في نفسي.. أفهمت؟ شيئًا يجعل منظمي الحياة أمثال يهوذا بتنيكوف، ومن على شاكلته، يرتعدون فرقًا قبل أن يروا شكلي الرهيب.

فقال كومة عظام:

- إن لك لسانًا جسورًا.

فنظره باحتقار قائلًا:

- أيتها الدودة القذرة! لقد فكرت وقرأت كتبًا لا تفهم منها ولا كلمة واحدة.

- طبعًا! لقد تعلمت كيف أتناول الحساء بحذائي، ولكن رغم أنك قرأت وفكرت، ولم أفعل منهما شيئًا، إلا أن كلانا انحدر إلى نفس الحالة التي انحدر إليها صاحبه. ألسنا كذلك؟

فصاح كوفالدا:

- اذهب إلى الشيطان!

كان حديثهما ينتهي دائمًا بشيء كهذا، فعندما يكون المدرس غائبًا يذهب كلامه هباء، ولا يتقبل موافقة أو انتباهًا، ولكن رغم أنه يعرف ذلك، لم يكن في مقدوره أن يسكت.

والآن، وقد تعارك مع رفيقه، شعر أنه وحيد بين هؤلاء الناس، ولكنه كان لا يزال يتحرق شوقًا إلى الحديث، فتحول إلى سيمستوف

بالسؤال الآتي:

- وأنت يا ألكسي مكسيموفيتش، أين ستضع رأسك الأشيب؟

فابتسم العجوز ابتسامة رقيقة، وحك أنفه، وأجاب:

- لا أعرف.. سوف أرى، أنا لا أحتاج كثيرًا، مجرد قدح خمر صغير بين الحين والحين.

وبعد فترة من الصمت، أضاف سيمستوف أنه سيجد وسيلة للحياة أسرع من أي منهم؛ لأن النساء يحببنه، ولم يكن كاذبًا، فقد كان له دائمًا عاهرتين أو ثلاث تحت تصرفه، يبقينه أيامًا بأكملها على دخلهن القليل، كن يضربنه بقسوة غالبًا، ربما لشفقتهن عليه. كان زير نساء كبير، وكان يقول إنهن سبب نكبته، وكانت ملابسه النظيفة المهندمة سبب قوة علاقته بهن، بالإضافة إلى أمراضه المتوالية.

وأخذ يزهو أمام أصدقائه وهو جالس على عتبة الوكالة بأن راديش تسأله منذ أمد بعيد أن يذهب ويعيش معها، ولكنه لم يفعل لعدم رغبته في تركهم، كانوا يصغون إليه والحسد يأكل قلوبهم، فكلهم يعرفون راديش التي تقطن عند سفح التل والتي حكم عليها بالسجن عدة أشهر من قريب لعودتها إلى السرقة. كانت فيما مضى ممرضة، بدينة طويلة أشبه بالفلاحة في شكلها، تعلو وجهها آثار الجدري، ولكن عينيها جميلتان لا تفارقهما أثار السُّكْر أبدًا.

صاح «كومة عظام» وهو ينظر إلى سيمستوف المبتسم رضاء عن نفسه:

- انظروا إلى إبليس العجوز.

- أتعرف لماذا يحببني؟ لأني أعرف كيف أمتع أرواحهن.

فقال كوفالدا مستفهمًا:

- صحيح؟!

- ويمكن أن أستدر شفقتهن.. والمرأة إذا أشفقت عليك قتلتك بشفقتها.

فأعلن مارتيانوف، وهو يضحك ضحكته القاتمة:

- إني أشعر كأني أريد أن أقتل.

فسأله كومة عظام وهو يبتعد عنه:

- من ستقتل؟

- الأمر سواء لديَّ.. بتنيكوف.. إجوركا... أو أنت!

فسأله كوفالدا:

- ولكن لماذا؟

- أريد أن أذهب إلى سيبيريا، لقد أخذت كفايتي من هذه الحياة الشريرة، هناك على الأقل تعيش كما يأمرونك.

فوافقه الكابتن متأففًا:

- أجل، إنهم يفعلون ذلك حقًّا، ولكن بطريقة عامة.

لم يعودوا يتحدثون عن بتنيكوف أو طردهم من الوكالة، فقد

عرفوا جميعًا أنهم تاركيها سريعًا، ورأوا أن الأمر لم يعد يستحق عناء الجدال. وجلسوا في شكل دائرة على العشب يتحدثون بتراخ عن أشياء متعددة، متنقلين من موضوع إلى موضوع، لا يعيرون ما يقولونه انتباهًا إلا قدر ما هو ضروري لاستمرار الحديث، فالصمت يضجرهم، والإصغاء أشد ضجرًا.

وكانت لهذه «المخلوقات التي كانت رجالًا» خصلة حميدة؛ لم يكن أي واحد منهم يحاول أن يثبت أنه أحسن من إخوانه، أو يحث الآخر على أمر كهذا.

ودفأت شمس أغسطس أسمالهم وهم جالسين معرضين ظهورهم ورؤوسهم الشعثاء لأشعتها، مزيج فوضى من الخضراوات، والمعادن التالفة، وحيوانات البلاد.

وفي زوايا الفناء صبار طويل، وأعواد أخرى عديمة النفع زينت منظر هذه الصحبة من الناس الذين لا فائدة فيهم.

* * *

وهذا ما جرى في حانة فافيلوف:

دخل بتنيكوف الصغير متئدًا، ونزع قبعته الرمادية ببطء، ونظر حوله نظرة فاحصة حتى أبصر صاحب الحانة، وهو يحييه بتذلل وابتسام، فقال له:

– ألست إجور ترنتيفتش... أهو أنت؟

فأجابه الجاويش وهو منحن على البار بكلتا ذراعيه، كأنه يستعد للقفز من فوقه:

- أنا هو.

فقال بتنيكوف:

- عندي مسألة معك.

- بكل سرور، تعال إلى حجرتي الخاصة إذا سمحت.

فدخلا وجلس الضيف على ديوان قذر القماش تفوح منه رائحة زيت الزيتون، والمضيف على كرسي أمامه، وكان هناك مصباح يشتعل في الزاوية أمام أيقونة هائلة، يمتد بجانبيها عدد كبير من أيقونات أصغر حجمًا، أطرها الفضية ملمعة جيدًا، والحجرة مزدحمة بأثاث قديم متنوع، تفوح منه رائحة التبغ والكرنب العفن وزيت الزيتون. وتطلع بتنيكوف حوله عابسًا، وتطلع فافيلوف إلى الأيقونة متنهدًا، ثم تمعن كلاهما الآخر متوجسًا، وأحب بتنيكوف عيني فافيلوف الصريحتين اللصتين، كما أحب فافيلوف وجه بتنيكوف الصريح الجامد بوجنتيه الناتئتين وأسنانه البيضاء.

وبدأ بتنيكوف الحديث قائلًا:

- أظنك خمنت ما أتيت أحدثك عنه؟

فقال الجاويش المتقاعد باحترام:

- القضية.. على ما أظن.

فقال بتنيكوف مشجعًا:

- إني مسرور لأنك لا تلف ولا تدور، بل تتجه مباشرة إلى الموضوع كرجل صريح.

فأجابه فافيلوف متواضعًا:

- أنا جندي.

- ظاهر عليك، ولذا أنا واثق من أننا سننهي الأمر بسرعة ودون عناء كبير.

- بالضبط.

- عظيم، وأريد أن أخبرك من البداية أن القانون في جانبك، وأنك ستربح قضيتك.

فقال الجاويش وهو يزر عينيه ليخفي ابتسامة أشرقت فيهما:

- أشكرك.

- ولكن أخبرني، لماذا تتعرف بجيرانك الجدد بهذه الطريقة الجافة، عن طريق المحاكم؟

فهز فافيلوف كتفه ولم يجب.

- ألم يكن الأفضل أن تأتنا مباشرة وتنهي الأمر وديًّا، هيه؟ ما رأيك؟

- طبعًا، ولكني لم أعمل برأيي، بل بنصيحة الآخرين، ثم تبينت

أن الأفضل لو... ولكن بعد فوات الوقت.

- أوه! أعتقد أن محاميًا نصحك أن تفعل هكذا؟

- واحد من هذا القبيل.

- آها، أتريد حقًّا أن تنهي الأمر وديًّا؟

فصاح الجندي قائلًا:

- من كل قلبي.

فسكت بتنيكوف لحظة، ثم تطلع إليه، وسأله فجأة ببرود وجفاء:

- لماذا تريد ذلك؟

فاضطرب فافيلوف الذي لم يكن يتوقع سؤالًا كهذا، بدا له شديد التفاهة في مثل هذا الظرف، لذا تجهم وجهه، شاعرًا بالاستعلاء، وقال:

- هذا سهل فهمه، يجب على الناس أن يحاولوا العيش بسلام بعضهم مع بعض...

فقاطعه بتنيكوف قائلًا:

- أوه، لا! ليس هذا هو السبب بالضبط، وأرى أنك لا تعرف بوضوح لماذا تريد أن تكون حسن العلاقات معنا.. سأخبرك.

واندهش الجندي من هذا الشاب الذي يرتدي حلة ذات خطوط مربعة يبدو فيها غبي المنظر، ويتحدث كما لو أنه الكولونيل راشكين

-ذو الذكريات السعيدة- الذي اعتاد أن يحطم أسنان ثلاثة من جنوده كلما انتابه الغضب.

- أنت تريد صداقتنا؛ لأننا سنكون جيرانًا نافعين لك، فمصنعنا سيحوي ما لا يقل عن مائة وخمسين عاملًا، سيزداد عددهم بمرور الوقت، فإذا أتى مائة منهم بعد أن يقبضوا أجرهم الأسبوعي، وشرب كل واحد قدحًا في حانتك، فمعنى هذا أنك ستبيع أربعمائة قدح في الشهر على الأقل زيادة عما تبيعه الآن، ثم لا تنس أن لديك مطعمًا، فيمكنك أن تفهم أي جيران نافعين سنكون لك، فأنت لست غبيًّا ولا غرًّا.

فأحنى فافيلوف رأسه موافقًا:

- هذا حق.. عرفت ذلك.

فسأله التاجر بصوت عال:

- حسنًا، ماذا تريد إذَنْ؟

- لا شيء لنكن أصدقاء!

- جميل أن أراك أمضيت رأيك بهذه السرعة، انظر هنا، لقد جهزت إخطارًا للمحكمة لتسحب القضية ضد والدي، ها هي، اقرأها، ثم وقع عليها.

فنظر فافيلوف إلى محدثه بعينيه المستديرتين وجفل كأنما شم رائحة كريهة:

- لا مؤاخذة.. أوقعها؟ كيف ذلك؟

فأوضح له بتنيكوف، وهو يشير بأصبعه إلى المكان المخصص للتوقيع:

- أمر في غاية البساطة، اكتب اسمك ولقبك ولا شيء أكثر.

- أوه! ليس الأمر كذلك.. لقد طلبت تعويضًا، يجب أن أعوض عن أرضي.

فقال بتنيكوف بهدوء:

- ولكن الأرض لا فائدة فيها لك.

فصاح الجندي:

- ولكنها ملكي على أي حال.

- طبعًا، وكم تريد ثمنًا لها؟

فأجابه فافيلوف بهدوء:

- حسنًا، لنقل المبلغ المذكور في الدعوى.

فابتسم بتنيكوف بلطف، وقال:

- ستمائة! يا لك من أحمق يستدر الضحك.

- القانون في جانبي... ويمكن أن أطلب ألفين، بل وأصر على إزالة البناء... وأجبرك على هذا أيضًا، هذا هو السبب في أن طلبي بسيط جدًّا.. ولكني أطلب أن تزيل البناء!

– حسنًا! سر في طريقك، ربما أزلناه بعد ثلاث سنوات، وقد غرمناك نفقات صغيرة ولكنها في مجموعها هائلة، وإذ ذاك تكون قد خسرت كل شيء، سنفتح نادينا الخاص، ويكون أحسن من ناديك، فتفلس، لتعمل كالسويديين في بولتافا.

فنظر إجوركا ترنتيفتش إلى ضيفه، وهو يصر على أسنانه، شاعرًا أن مصيره بين يديه، وغمره شعور زائد بالتحسر على نفسه؛ لأن عليه أن يتفاوض مع هذا المخلوق الهادئ الصلب الذي يرتدي سترة واقية.

– ولا تنسى أيضًا أنك يمكنك أن تستفيد كثيرًا من بقائك صديقًا لنا، وسوف لا ندخر وسعًا في أن نجعل صداقتنا مفيدة لك، مثلًا أنصحك الآن أن تفتح دكانًا صغيرًا لبيع التبغ –فاهم– والخبز والكبريت والخيار وما أشبه.. فكل هذه مطلوبة أكيدًا.

وأصغى فافيلوف، وتبين بذكائه أن الخطة المثلى هي أن يرمي نفسه في كرم صديقه، كان يجب أن يفعل ذلك من قبل، ولكنه كان عاجزًا عن توجيه عقله غير الوجهة التي وجهه إليها كوفالدا، فأخذ يسبه قائلًا:

– لتحل اللعنة على رأسك، أيها الوغد الكبير! ليأخذك الشيطان!

فسأله بتنيكوف هادئًا:

– أتعني المحامي الذي كتب عريضتك؟

وأردف وهو يتنهد:

- لست أشك في أنه كان سيلقي بك إلى أسوأ من هذا... ألم أشفق عليك؟

فرفع الجندي المحزون يده قائلًا:

- آه، إنهم اثنان؛ واحد اكتشف الأمر، والآخر كتب العريضة، وهو المراسل الملعون!

- وما دخل المراسل؟

- إنه يكتب للجرائد.. إنه أحد مستأجريك، أي ديدان خبيثة هم! اطردهم لأجل خاطر المسيح! يا لهم من لصوص! إنهم يصيحون ويتعاركون مع كل مخلوق في الشارع، إن الإنسان لا يستطيع العيش معهم، أشخاص منحطون.. خذ حذرك منهم وإلا سرقوك وأشعلوا النار في مصنعك.

فسأله بتنيكوف باهتمام:

- ومن هذا المراسل الملعون؟

- من هو؟! سكير كان مدرسًا وطُرد، يسكر نفسه حتى الموت، يكتب للجرائد ويؤلف الشكاوى.. خداع.

- آه، وهل كتب شكوتك أيضًا؟ هُوه.. هُوه! أظن أنه هو الذي كتب عن عيوب البناء، فالثقالة لم تكن كما يجب.

- لقد كتبها! وكتب عن بنائك أيضًا.. الكلب، فقد قرأ تقريره هنا بصوت عال مفتخرًا:

- الآن سببت لبتنيكوف بعض المتاعب.

فقال بتنيكوف:

- حسنًا، هل تريد الصلح الآن؟

- أريد الصلح.

وخفض الجندي رأسه مفكرًا، ثم قال بصوت جريح، وهو يخمش صدره:

- آه! هذه حياة مظلمة!

فنصحه بتنيكوف، وهو يشعل سيجارة:

- يجب على المرء أن يستنير.

- أستنير؟ لا أفكر في هذا، يا سيدي العزيز، ولكن ألا ترى أني محروم من الحرية؟ ألا ترى أي حياة أحياها؟ إني أعيش في الخوف والرعب.. محرومًا في كل حركة من حركاتي، من الحرية، ولم ذلك؟ لأن المدرس الشقي التعس يكتب عني في الصحف، فيأتي مفتشو الصحة، والغرامات يجب أن أدفعها، وقد يأتي مستأجروك في أي لحظة ويشعلون النار في المكان، أو يسرقونني ويقتلونني.. إني عاجز إزاءهم، إنهم لا يخشون البوليس، بل يحبون الذهاب إلى السجن، إنهم يأخذون طعامهم هناك بلا مقابل.

فوعده بتنيكوف قائلًا:

- حسنًا، سنطردهم إذا اتفقنا معك.

فسأله فافيلوف حزينًا كئيبًا:

- إذَنْ، أي شروط تقترح؟

- أخبرني شروطك.

- حسنًا، أعني الستمائة المذكورة في الدعوى.

فسأله التاجر هادئًا وهو ينظر إليه بثبات، ويبتسم برقة:

- أتأخذ المائة؟

ثم أردف:

- ولن أزيد روبلًا واحدًا.

وتناول نظارته، وأخذ ينظفها بمنديله متأنيًا. ونظره فافيلوف بمزيج من اليأس والاحترام؛ فوجه بتنيكوف الهادئ، وعيناه الرماديتان الواسعتان، وعظام وجنتيه الناتئة، وكل خط في جسمه المتين يكشف عن الثقة بالنفس والعقل الراجح. وأحب فافيلوف الطريقة الودية الصريحة التي خاطبه بها بتنيكوف، دون تكلف -كأنه من طبقته- بالرغم من أنه المسيطر عليه والأغنى والأقوى، وشعر بموجة من الفضول تجتاحه وهو ينظر إليه، ونسي لحظة الأمر الذي بينهما، فسأل بتنيكوف باحترام:

- أين تلقيت علومك؟

فأجابه الآخر وهو يبتسم:

- في المعهد التكنولوجي. لماذا؟

- لا شيء فقط.. ولا مؤاخذة!

وخفض الجندي رأسه، ثم صاح بحدة قائلًا:

- يا للعلم من أمر عظيم! العلم نور، بينما نحن الفقراء أغبياء كالبوم في رائعة النهار.. يا حضرة دعنا ننهي المسألة.

وبمظهر من استقر رأيه مد يده لبتنيكوف، قائلًا:

- حسنًا، أرضيت بخمسمائة.

- لا أكثر من مائة يا إجور ترنتيفتش.

وهز كتفيه هزة من لا يملك دفع الزيادة، وفجأة استسلم الجندي لكل رغبات بتنيكوف العنيد، الذي تناول يد الجندي الكثيفة الشعر في يده البيضاء، وأنهى الأمر في الحال.

وبعد أن تسلم فافيلوف المائة روبل ووقع الورقة، رمى الريشة على المنضدة، وقال بأسى:

- والآن! سأقضي وقتًا جميلًا مع هؤلاء الفتوات، سيضحكون مني ويهينونني، إنهم أبالسة!

فاقترح عليه بتنيكوف، وهو ينفث سحب الدخان هادئًا ويراقبها وهي تطفو صاعدة:

- يمكنك إخبارهم أني دفعت كل ما طلبت!

- ولكن! أتعتقد أنهم سيصدقونني؟ إنهم كالبهلوانات الماهرة! إن لم يكن أسوأ!

وتوقف فافيلوف في الحال قبل أن يقوم بالمقارنة المنتواة، وتطلع بقلق إلى ابن التاجر الذي كان يدخن مغتبطًا، ثم استأذنه في الانصراف وهو يعده بأن يدمر عش الصعاليك المجرمين، فتبعه فافيلوف بنظرة وتنهد، وشعر برغبة قوية في أن تنطلق شتيمة هائلة إثر الشاب المنصرف ثابت الخطى إلى الطريق المنحدر، متعثرًا بين حفره ونفاياته.

وظهر الكابتن مساء في الحانة منتفش الحاجبين، وقبضته اليمنى مطبقة كالهراوة، فابتسم فافيلوف في وجهه ابتسامة من ارتكب جرمًا:

– خيرًا، يا سليل يهوذا وقايين، أخبرنا.

فأجابه فافيلوف وهو يتنهد ويرخي ناظريه:

– لقد أنهينا الأمر كله.

– لا شك في هذا، كم قطعة فضية أعطاك؟

– خمسمائة روبل.

– إنك كذاب طبعًا.. ولكن هذا أحسن لي، من دون كلام كثير يا إجوركا، أعطني عشرة في المائة على اكتشافي وخمسة وعشرين روبلًا للمدرس على كتابة العريضة، وصندوقًا من الفودكا لنا، ومزة محترمة حوالينا. هات النقود الآن، أما الفودكا والمَزَّة ففي الساعة الثامنة.

واخضر وجه فافيلوف وحملق في الكابتن بعينين واسعتين:

– هذه وحشية! هذه سرقة! لن أفعل شيئًا مما تطلب. ماذا تعني

يا أرستيد فوميتش؟ أمسك بطنك إلى العيد القادم! مثل ذلك! أنا لا أخاف منك الآن! أنا...

فتطلع كوفالدا إلى الساعة قائلًا:

- أعطيك عشر دقائق يا إجوركا، لتنتهي من كلامك الفارغ، فانته من هرائك خلال هذه المدة، وأعطني ما طلبت، فإن لم تفعل قضيت عليك! ألم يبعك «مصيبة» شيئًا؟ أفهمت؟ ألم تقرأ عن السرقة التي حدثت في باسوف، لن يكون أمامك وقت لتخفي شيئًا، سننظر في ذلك هذه الليلة.. أفهمت؟

وبكى الجاويش وهو يخر على ركبتيه، وقال بصوت يغص بالدموع:

- يا أرستيد فوميتش، أشفق عليّ!

- ولا كلمة أخرى! أفهمت؟

وقف الكابتن أمامه طويلًا أشيب رهيبًا، ورن صوته العميق الأجش في الحانة الخاوية ينذر بالسوء، لقد خانه فافيلوف دائمًا، لا كجندي متقاعد فقط، بل كرجل ليس لديه شيئًا يفقده، ولكن كوفالدا ظهر أمامه الآن في دور جديد، فلم يرغ ويهذر كعادته، بل تكلم بلهجة الأمر الموقن من أنه سيطاع، وليس هذا بالأمر الهين. وشعر فافيلوف أن الكابتن يمكن أن يخربه ويسخر منه دون شفقة.

ولكن يجب ألا يتداعى بسرعة أمام هذه القوة، فقرر أن يقوم

بمحاولة أخيرة يائسة، بالرغم من أنه كان يغلي غضبًا، فتنهد من أعماقه، وبدأ كلامه بتواضع ظاهري قائلًا:

– لقد قيل بحق إن الكذب لا يدوم طويلًا.. لقد كذبت عليك يا أرستيد فوميتش.. حاولت أن أبدو أمهر مما أنا في الحقيقة، لم آخذ منه إلا مائة روبل فقط.

فقال كوفالدا:

– استمر.

– وليس خمسمائة كما قلت لك.. وهذا يعني...

– لا يعني شيئًا، فأنا لا أعرف ما إذا كنت تكذب الآن أم أنك قد كذبت من قبل. أنت مدين لي بخمسة وستين روبلًا، أهذا كثير، إيه؟

– آه، يا أرستيد فوميتش! لقد كنت ألبي طلبات سعادتك دائمًا، وأفعل كل ما في وسعي لأرضيك.

– دعك من هذا كله يا إجوركا، أيها الابن الأكبر ليهوذا!

– حسنًا! سأعطيها لك.. ولكن سيعاقبك الله على هذا..

فصاح الكابتن بوحشية وقد زوى ما بين حاجبيه:

– اخرس! يا أقذر دمل في وجه الأرض، لقد عاقبني الله بما فيه الكفاية بإجباري على التحدث إليك ورؤيتك، سأقتلك على العتبة كالذبابة.

وهز قبضته في وجه فافيلوف مكشرًا عن أنيابه.

وبعد أن انصرف، أخذ فافيلوف يكشر ويغمض عينيه بعصبية، ثم انحدرت دمعتان سخينتان على وجهه وكانتا بلون الرماد، فلما اختفيتا في شاربه، تبعتهما دمعتان أخريان، ثم ذهب فافيلوف إلى الحائط، ووقف أمام الأيقونة دون أن يصلي، جامدًا لا حراك به، تاركًا الدموع تنحدر على خديه الأسمرين المجعدين.

* * *

اقترح عليهم الشماس تاراس المحب للتجول في الحقول والمراعي، أن يذهبوا ويشربوا خمر فافيلوف بين أحضان الطبيعة، ولكن الكابتن وصحبته سبوا كلًّا من الشماس والطبيعة، وقرروا شربها في الفناء.

وعدهم أرستيد فوميتش قائلًا:

– واحد، اثنين، ثلاثة... نحن ثلاثة عشر، فالمدرس غائب.. ولكن ربما انضم إلينا بعض اللصوص الآخرين، فلتعدهم عشرين، وعندئذ يصبح لكل شخص خيارتين ونصف، ورطلًا من الخبز، ورطلًا آخر من اللحم... لا بأس، ولكل واحد زجاجة فودكا، كما أن هناك كثيرًا من الكرنب، والتفاح، وثلاث بطيخات.

وأنا أسألكم بحق الشيطان! ماذا تريدون أكثر من ذلك يا أصدقائي الصعاليك؟ ولندعوا لإجوركا فافيلوف، فهذا دمه ولحمه!

ونشروا بعض الملابس القديمة على الأرض، ورصوا الخمر

والمأكولات عليها، وجلسوا حولها وقورين هادئين يكادون لا يقدرون على كبح ظمأهم للشراب البادي في عيونهم.

وأخذ الظلام ينتشر ويلقي ظلاله على فناء الوكالة، وأضاءت أشعة الشمس الأخيرة سطح البناء الجديد، وهب النسيم باردًا منعشًا.

وألقى الكابتن أمره قائلًا:

- دعونا نبدأ يا إخوان! كم قدح عندنا! ستة.. ولكننا ثلاثة عشر! أأنت مستعد لصب الخمر يا ألكسي مكسيموفيتش؟ والآن، الجرعة الأولى... هيا يا رفاق!

وشربوا، وتصايحوا، وأخذوا يأكلون.

وسألهم كوفالدا:

- ليس المدرس هنا... إني لم أره من ثلاثة أيام. ألم يره أحدكم؟

- لا أحد.

- ليس هذا من عادته، حسنًا، لا يهمكم، دعونا نشرب في صحة أرستيد كوفالدا.. الصديق الوحيد الذي لم يهجرني ولا دقيقة من حياتي! ليأخذه الشيطان على أي حال! ربما كنت الرابح لو ترك صحبتي مدة وجيزة.

فقال كومة عظام وهو يسعل:

- أصبت.

فنظر الكابتن إلى رفاقه وقد غمره شعور حاد بسيطرته، ولكنه لم يقل شيئًا لانهماكه في الأكل.

وبعد أن شربوا مرتين، أخذ المرح يدب في الصحبة، وكان الطعام وفيرًا.

وعبر «تاراس ونصف» عن رغبته في سماع قصة، ولكن الشماس كان منهمكًا في المناقشة مع «المدور» حول تفوق المرأة الرفيعة على السمينة، فلم يعر رفيقه التفاتًا. كان يعرض آراءه «للمدور» بحرارة وحمية المقتنع بأنه على صواب.

وبدأ السرور على وجه متيور المستلقي على الأرض، من لغة الشماس القوية.

وجلس مارتيانوف ضامًّا ركبتيه بيديه الكثيفتي الشعر ينظر صامتًا حزينًا إلى زجاجة الفودكا، ويحاول إمساك شاربه بلسانه ووضعه بين أسنانه، بينما يحاور «كومة عظام» طيابا قائلًا:

– لقد عرفت المكان الذي تخفي فيه نقودك يا ساحر.

فزمجر طيابا قائلًا:

– أين؟

– سأضع يدي عليها سريعًا.

– حسنًا، تفضل خذها.

وكان كوفالدا مستاء من ندمائه الذين لا يستحق أي واحد منهم سماع خطبه أو فهمها.

فنظره مارتيانوف قائلًا:

- سيأتي سريعًا.

- لا أشك في أنه سيأتي على قدميه وليس محمولًا في عربة، دعنا نشرب نخب صحتك المستقبلة، أيها المجرم العتيد.. وإذا قتلت غنيًّا فلتقاسمني ماله.. وعندئذ أذهب إلى أمريكا. يا أخي إلى أولئك... - ماذا تسميهم؟ ليمباس؟ بمباس؟ سأذهب وأعمل بجد حتى أصبح رئيسًا للولايات المتحدة، فأدعو أوروبا كلها للحرب، وأدمرها! سأشتري جيشًا.. من أوروبا نفسها.. سأدعو الفرنسيين والألمان والأتراك وغيرهم وأجعلهم يقتلون أقرباءهم.. تمامًا كما استخدم إيليا موروميتش التتاريين ضد التتاريين. بالنقود يمكنك أن تكون إيليا، وتدمر أوروبا كلها، وتجعل من يهوذا بتنيكوف خادمًا لك. لن يتردد في خدمتك.. أعطه مائة روبل في الشهر فقط فيمسح لك حذاءك؟ ولكنه سيكون خادمًا فاسدًا لأنه سيحاول سرقتك حالًا.

وكان الشماس يقول مؤكدًا:

- ثمة سبب آخر يوضح لك لماذا أفضل المرأة الرفيعة على أختها السمينة، وهو أنها أقل كلفة.. فقد اعتادت شماستي الأولى أن تشتري اثني عشر قدمًا لفستانها، أما الثانية فيكفيها عشرة فقط، وهكذا الأمر فيما يتعلق بالطعام.

وتأوه تاراس كمن يثقله الإثم، وتحول إلى الشماس ونظر إلى وجهه مباشرة بعينه الواحدة، وقال في ارتباك:

- كانت لي زوجة...

فقاطعه كوفالدا قائلًا:

- أوه! ذلك يمكن أن يحدث لأي مخلوق، ولكن دعك من الأكاذيب.

- كانت رفيعة، ولكنها كانت نهمة لا تشبع، بل إنها ماتت من التخمة!

فقال «كومة عظام» وكله ثقة:

- بل سممتها، يا أعرج.

فأجابه تاراس ونصف:

- أبدًا، وربي! لقد ماتت بسبب أكلها أخطبوطًا.

ولكن «كومة عظام» قاطعه بإصرار:

- ولكني أقول إنك سممتها.

كان يحدث غالبًا أن يقول قولًا سخيفًا، ويظل يردده دون محاولة تثبيت قوله، فيبدأ بلهجة طفلية عنيدة، ويأخذ في رفع صوته بالتدريج حتى يستحيل إلى صيحة مجنونة.

وأتى الشماس لمساعدة صديقه قائلًا:

- لا، إنه لم يسممها، فلم يكن لديه ما يدفعه لفعل ذلك.

فصاح كومة عظام:

- ولكني قلت إنه سممها.

- اسكتوا.

صاح الكابتن مهددًا، وقد زاد الضجر طبعه حدة، ونظر إلى أصدقائه نظرة قاسية، فلما لم يجد على وجوههم الثملى شيئًا يزيد غضبه، خفض رأسه، وجلس هنيهة، ثم استلقى ظهرًا على الأرض، وكان متيور يقضم الخيار.. فأخذ خيارة في يده دون أن ينظر إليها، ودفع نصفها في فمه، وقضمها بأسنانه الصفراء، فتطاير العصير في كل اتجاه وسال على خديه. لم يكن يرغب في الأكل بل يتلهى باللعبة، وجلس مارتيانوف، بلا حراك في الوضع الذي جلسه أول مرة على الأرض، كأنه تمثال، ونظر إلى زجاجة الفودكا النصف فارغة نظرة فاحصة تنذر بالسوء، وتفرس طيابا في الأرض، وهو يحاول مضغ قطعة لحم جد قاسية على أسنانه، واستلقى «كومة عظام» على بطنه وسعل، وجسمه النحيل الهزيل يرتجف ويهتز، واستلقت الأشكال المظلمة الصامتة في أوضاع مختلفة، وأضفت ذؤابات شعورهم عليهم طابعًا جعلهم يبدون أشبه بحيوانات هائلة خلقتها قوة غريبة خيالية تسخر من الإنسان.

وغنى الشماس في نبرات خفيضة، وهو محتضن ألكسي مكسيموفيتش الذي يبتسم برقة في وجهه:

كانت هناك سيدة في سوزدال..

يشوب حياتها الفقر والشقاق..

فأصيبت بتشنج من المحزن ذكره..

وكان كريهًا عليها جدًّا..

وضحك تاراس ونصف ضحكة ماجنة.

وأرخى الظلام سدوله، وشعت النجوم في السماء هنا وهناك، وأضيئت المصابيح على الجبل وفي المدينة، وكان صوت صفارات البواخر يحمله الهواء من النهر حزينًا ناحبًا، وفتحت حانة فافيلوف بصيحة وأصوات تكسير زجاج، ودخل شبحان أسودان الفناء، وأقبلا على الصحبة الثملة، وسأل أحدهم في صوت أجش:

- أتشربون؟

وقال الآخر متعجبًا:

- انظر يا لهم من شياطين.

وامتدت يد فوق رأس الشماس تناولت الزجاجة، وسمع صوت انصباب الفودكا المعروف، ودوّت صيحة، وصاح الشماس:

- أوه، هذا نكد شديد يا تاراس، دعنا نتذكر الأوقات الماضية ونغني.. على أنهار بابل.

فسأله سيمستوف:

- ولكن أيمكنه الغناء؟

- هوه... هوه!! كان أحسن مرتل في بطانة المطران. والآن، والآن، يا تاراس.. غن عن الأزهار.

وغنى الشماس بصوت عال خشن محشرج، وصديقه بصوت مصطنع مصرصر.

وبدا البناء القذر كبيرًا في الظلمة، وكأنه يزحف بكل خشبه العفن نحو المغنين اللذين يثيران أصداءه الغبية بصيحاتهما الوحشية. وخيمت فوق رؤوسهم سحب كثيفة سوداء. كان أحد المخلوقات يغط في نومه، أما الآخرون، فلأنهم لم يشربوا كفايتهم، كانوا يأكلون ويشربون صامتين أو يحدث بعضهم بعضًا هامسين.

ليس من عاداتهم أن يكونوا في مثل هذه الحالة من الهبوط أثناء حفلة كهذه -حافلة بالفودكا- كان الشراب الليلة ليس له تأثيره المعتاد.

قال الكابتن للمغنين وهو يرفع رأسه من على الأرض ليصغي:

- كفى عواء! أيها الكلاب! هناك شخص يمر.. في عربة حنطور.

وقد كان عبور عربة في هذه الساعة المتأخرة من الليل لا بد أن يثير التفات الجميع، فمن يجرؤ على المخاطرة بالسير في الشارع المليء بالحفر والأودية؟ ولماذا؟

رفع الجميع رؤوسهم وأرهفوا السمع، في وقت كان صوت العجلات المنحدرة على الأرض يسمع بوضوح في سكون الليل.

وأخذ الصوت يقترب تدريجيًّا، وسمع صوت يسأل بحدة:

- طيب، أين هو؟

فأتاه صوت يقول:

- لا بد أنه ذلك البيت القائم هناك.

- لن أذهب خطوة أخرى.

فصاح الكابتن:

- إنهم آتون إلى هنا.

فهمس أحدهم في فزع شديد:

- البوليس...

فقال مارتيانوف في رقة:

- هل يأتي البوليس في حنطور يا غبي؟

ونهض كوفالدا وذهب إلى البوابة.

وسأله الصوت الأجش:

- أهذه وكالة..

فصاح الكابتن بجفاء:

- نعم.

- أوه، أيعيش هنا مراسل اسمه تيتوف؟

- آه، هل أحضرته؟

- نعم.

- سكران؟

- بل مريضًا.

- هذا يعني أنه سكران جدًّا.

واتجه ناحيته قائلًا:

- قم الآن إذَنْ يا مدرس.

- انتظر سأساعدك.. فهو مريض جدًّا.. كان معي طيلة اليومين الماضيين. اسحبه من تحت ذراعيه.. لقد رآه الطبيب، إن حالته سيئة.

ونهض طيابا وسار إلى البوابة، بينما ضحك «كومة عظام» وتناول جرعة أخرى وصاح الكابتن:

- أشعل مصباحًا هناك.

فذهب ميتور إلى البيت وأشعل مصباحًا، فأضاء الفناء بلهيب كبير من النور، ودبر الكابتن والغريب الضئيل إدخاله إلى الوكالة. كان رأسه مائلًا على صدره وقدماه تزحفان على الأرض، وذراعاه تتدليان في الهواء كأنهما مكسورتان، ووضعوه في الفراش بمعونة طيابا، وكان جسده يرتجف وهو يمده نفسه على الخرق.

- إنا نعمل في جريدة واحدة.. إنه شديد البؤس.. قلت له امكث الليلة عندي، فطريقك غير طريقي.. ولكنه رجاني إرساله إلى منزله، وكان شديد القلق عليه لدرجة أني حضرته هنا ظانًّا أن هذا قد يفيده.. أهذا هو البيت؟ أليس هو؟

فسأله الكابتن بحدة، وهو يمعن النظر في صديق المدرس:

- أو تظن أن له بيتًا غيره؟

ثم أردف:

- أحضر لي بعض الماء البارد يا طيابا.

فسأله الغريب في شيء من الارتباك:

- أترى فائدة من بقائي هنا؟

فنظره الكابتن متفحصًا؛ كانت ملابسه نظيفة محكمة الإزرار حتى ذقنه، وسرواله عتيق، وقبعته صفراء بفعل الزمن، مغضنة كوجهه الهزيل الجائع.

فأجابه الكابتن وهو يبتعد عنه:

- لا، لا لزوم لك! عندنا كثيرون مثلك.

فعاد الرجل أدراجه إلى الباب، وقال برقة من هناك:

- إذا وقع المحظور، أخبرني في المكتب.. اسمي ريزهوف، فربما أمكنني أن أكتب نعيًا قصيرًا عنه.. فهو قبل كل شيء عضو في أسرة الصحافة.

- أتقول نعيًا؟ أعشرون سطرًا بأربعين كوبكًا؟ سأفعل أكثر من ذلك، فعندما يموت سأقطع إحدى ساقيه وأرسلها لك، فستكون أربح لك من النعي، ستكفيك ثلاثة أيام؛ فقدماه سمينتان.

- لقد التهمتموه كلكم وهو حي، ويمكنكم أن تفعلوا المثل بعد موته.

فعطس الرجل بطريقة غريبة واختفى.

وجلس الكابتن على الرف الخشبي بجانب المدرس، وتحسس جبهته وصدره، ونادى:

- فيليب.

ورددت جدران الوكالة القذرة صدى ندائه، ثم تلاشى.

- هذا سخيف يا أخي.

قال الكابتن وهو يمسد شعر المدرس المبعثر بيده، ثم أصغى لتنفسه، كان سريعًا جدًّا وغير منتظم، وتطلع إلى وجهه الشاحب المحتقن، وتنهد وهو ينظر حوله ويشد حاجبيه، وألقى المصباح ضوءًا واهنًا وظلالًا مرتعشة على جدران الحجرة، وحدَّق الكابتن في رقصها الصامت، وهو يمر بيده على لحيته.

وعاد طيابا حاملًا جردلًا من الماء وضعه على الفراش بجوار رأس المدرس.

فهز الكابتن رأسه قائلًا:

- لا حاجة بنا إلى الماء.

فقال جامع الخرق العجوز:

- قسيس، ذلك ما يلزمنا.

فأجابه الكابتن بحدة:

- لا، لا شيء.

وجلسا صامتين ينظران إلى المدرس.

- دعنا نذهب ونشرب أيها الشيطان.

- وماذا سنفعل به؟

- أيمكنك أن تفعل شيئًا؟

فأدار طيابا ظهره، وعاد كلاهما إلى الفناء لينضما إلى رفاقهما.

سأل «كومة عظام» وهو يتجه بأنفه الحادة إلى الكابتن:

- ماذا حدث؟

فأجابه الكابتن باختصار:

- لا شيء غريب... الرجل يموت.

فسأله «كومة عظام» ثانية:

- هل ضربه أحد؟

فلم يجبه الكابتن، فاستطرد «كومة عظام» وهو يشعل سيجارة:

- لا بد أنه لدينا ما نذكره به بعد موته.

ورنت ضحكة، ثم تنهيدة عميقة، واعتدل الشماس فجأة في مجلسه، وحرك شفتيه، وحك أنفه، وعوى بوحشية:

- أين يمكث الرجل الطيب؟

فصاح «كومة عظام» بصوت كالفحيح:

- أنت! لماذا تعوي هكذا؟

فنصحه الكابتن قائلًا:

- اضربه على فكه.

فقال طيابا بصوت الأجش:

- يا أغبياء! ساعة رحيل الإنسان يجب أن يهدأ من حوله.

فساد الهدوء أرجاء المكان، وأنذرت السماء الملبدة بالسحب بصب أمطارها على الأرض المغلفة بظلام الخريف المشؤوم، وطغت السحب منخفضة سوداء كأنها سترتطم بسقف المنزل القديم وتنثره أشلاء على رؤوسهم.

قال الكابتن وهو يخفض رأسه:

- آه كم يحزن موت الصديق.

فلم يجبه أحد.

- كان خيركم جميعًا.. وأمهركم وأذكاكم، وأشدكم إخلاصًا.. سأفتقده!

فجأر الشماس وهو يدفع صديقه في أضلاعه:

- سيرتاح مع قديسين.. غن أيها الوغد المشوه.

فصاح «كومة عظام» وهو يقفز إلى قدميه غاضبًا:

- اسكت.

وقال مارتيانوف وهو يرفع رأسه من على الأرض:

- سأعطيه ضربة على أم رأسه.

فسأله أرستيد فوميتش برقة غير متوقعة:

- أأنت مستيقظ؟ هل سمعت بما حدث لمدرسك؟

فنهض مارتيانوف متثاقلًا ونظر إلى الأضواء وهي تنبعث من الوكالة. وجلس صامتًا بجوار الكابتن، فاقترح عليه كوفالدا وهو يبحث عن الأقداح:

- هيا نشرب ثانية!

وقال طيابا:

- سأذهب لأرى ما إذا كان في حاجة إلى شيء.

فأجابه الكابتن بصوت متغير:

- إنه في حاجة إلى كفن.

فاستعطفه «كومة عظام» في صوت خفيض قائلًا:

- لا تتحدث هكذا.

ونهض متيور وتبعه طيابا، ولمس الكابتن كتف مارتيانوف مخاطبًا إياه في نبرات خفيضة:

- حسنًا مارتيانوف.. يجب أن يؤلمك الأمر أكثر من الآخرين، لقد كنت.. لكن ليذهب هذا إلى الشيطان.. أتريد أن تفقد فيليب؟

فأجابه السجان السابق بعد لحظة صمت:

- لا، لا أشعر شيئًا من هذا القبيل، أنا يا أخي، فقدت عادة التعود.. هذه الحياة بغيضة، وكنت أعني كلامي عندما قلت إني أريد قتل إنسان.

فقال الكابتن بخشونة:

- كذا.

ثم أردف:

- حسنًا، دعنا نشرب ثانية.

- إن عملنا قليل، قدح ثم آخر.

واستيقظ سيمستوف مغمغمًا في صوت ذاهل:

- ألا من يصب قدحًا لرجل عجوز!

فصب له قدحًا وأعطاه له فشربه، ثم سقط ثانية، وفي سقطته صدم جسد أحدهم. ومرت دقيقتان أو ثلاث مظلمتين مفزعتين كليلة خريف.

وسمع صوت:

- ماذا تقول؟

فأتاه صوت الكابتن هامسًا:

- أقول إنه كان رجلًا طيبًا.. ذا مواهب، لطيف المعشر.

- أجل، وكان ذا نقود.. لا يمنعها عن أي صديق.

وساد السكون ثانية.

ثم قال طيابا بصوت خشن من وراء الكابتن:

- إنه ينتهي بسرعة.

فنهض أرستيد فوميتش وسار إلى الوكالة بخطوات ثابتة، فأوقفه طيابا قائلًا:

- لا تذهب، لا تذهب! فأنت سكران، وليس هذا ملائمًا.

فتوقف الكابتن لحظة، ثم قال مفكرًا:

- وأي شيء صحيح على هذه الأرض؟ اذهب إلى الشيطان!

ودفع طيابا جانبًا.

كانت الظلال تتكاثف على جدران الحجرة كأنها تغطي بعضها بعضًا، واستلقى المدرس على اللوح الخشبي ممتدًا وانبعثت منه حشرجة مؤلمة، كانت عيناه مفتوحتين إلى آخرهما، وصدره العاري يرتفع وينخفض بشدة، والزبد يطفو على جانبي فمه، ووجهه يكسوه تعبير مؤلم عميق، كأنه يرغب في قول شيء مخيف عظيم الأهمية ولا يمكنه، فيتعذب. ووقف الكابتن ويداه معقودتين خلف ظهره، ونظر إلى صديقه في سكون هنيهة، ثم تكلم وقد تقطبت جبهته في حزن شديد:

- فيليب! قل لي شيئًا.. كلمة مريحة لصديق... قم إليّ.. إني أحبك يا أخي... الناس كلهم وحوش.. ولكنك كنت الإنسان الوحيد لي... وإن كنت سكيرًا، آه! كم سكرت يا فيليب، وكان في هذا دمارك،

كان يجب أن تسمع كلامي، وتضبط نفسك... ألم أقل لك؟

وكأنما أهان وجود هذا السكير الحصَّاد الغامض المدعو بالموت الذي لا يبقي على شيء في صراعه مع الحياة، فقرر أن ينهي عمله القاسي في الحال. فتنهد المدرس من أعماقه، وأنّ، وارتجف جسمه كله، وتمدد، وساد السكون كل شيء. وظل الكابتن واقفًا وهو يرتجف، واستطرد يحدثه:

- أتريدني أن أحضر لك بعض الفودكا؟ كان الأفضل ألا تشرب يا فيليب... شد حيلك، أو من الأفضل أن تشرب، فلم تكبح نفسك؟ لأي سبب يا فيليب؟ لأجل من؟

وجذبه من قدميه حتى قربه منه، واستأنف كلامه:

- هل أنت نعسان يا فليب؟ حسنًا، نم إذَنْ... ليلتك سعيدة.. غدًا أوضح لك كل شيء.. وسوف ترى ألا حاجة بك لتمنع نفسك عن الشراب... ولكن استمر في نومك الآن، إذا لم تكن ميتًا.

وخرج إلى أصدقائه مشيعًا بالصمت العميق قائلًا:

- إنه إما نائم أو ميت، لست أدري... فأنا سكران قليلًا.

فازداد طيابا انحناء ورسم علامة الصليب، وارتجف مارتيانوف وسقط على الأرض، واستلقى صامتًا، فأخذ «كومة عظام» يتململ وقال في نبرة خفيضة قاسية:

- يمكنكم أن تذهبوا جميعًا إلى الشيطان، هل مات؟ وماذا في

ذلك؟ لماذا أهتم؟ لماذا أسمع عنه؟ سيأتي وقتي أيضًا.. إني لست أسوأ من الباقين.

فقال الكابتن بصوت عال وهو ينحدر إلى الأرض:

- ذلك حق سيأتي الوقت الذي نموت فيه جميعًا كما مات الآخرون. ها! ها! كيف نحيا؟ كلام فارغ... ولكننا سنموت كالآخرين، وهذا كل هدف الحياة. اسمع كلامي؛ إن الإنسان لا يعيش إلا ليموت، ويموت.. فإذا كان ذلك كذلك، فلماذا نشغل أنفسنا بأمر العيش؟ ألست أحمق يا ماريتانوف؟ دعنا نشرب إذَنْ.. ونحن لا نزال على قيد الحياة!

وأخذ المطر يتساقط، وغطى الظلام المتكاثف الأشكال التي ترقد مبعثرة على الأرض مشلولة من الخمر والنعاس، وارتعش الضوء في نوافذ الوكالة، وشحب، وانطفأ فجأة، ربما أطفأته الريح أو أن الزيت قد نفد. وقرعت حبات المطر سقف الوكالة الحديدي بخجل وضعف، وسمعت من أعلى التل دقات أجراس الكنيسة الناحبة الخفيضة، وساح الصوت المعدني رويدًا في الظلام، وأخذ يتلاشى بطيئًا، ولكن قبل أن تغرق في الظلام دقته المتنهدة المرتعشة الأخيرة، تولدت دقة أخرى ليقطع تنهد المعدن الحزين سكون الليل ثانية.

كان طيابا أول من استيقظ في اليوم التالي، وتطلع إلى السماء مستلقيًا على ظهره، فليس في غير هذا الوضع تسمح له رقبته المشوهة برؤية السحب فوقه.

وارتدت السماء هذا الصباح حلة قاتمة، وتجمع ضباب الفجر الرطب حاجبًا الشمس مخفيًا اللانهاية الزرقاء خلفه، ورسم طيابا علامة الصليب على صدره، ونظر حوله باحثًا عما إذا كان ثمة بقية من الفودكا، فلما وجد زجاجته فارغة أخذ يزحف فوق رفاقه ناظرًا في زجاجاتهم حتى عثر بواحدة تكاد تكون ممتلئة، فأفرغها في جوفه، ومسح شفتيه بكمه، وبدأ يهز الكابتن.

فرفع هذا رأسه ونظره بعينين منطفئتين.

قال طيابا:

- قم.. يجب أن نخبر البوليس.

فسأل الكابتن بتثاقل وغضب:

- عن أي شيء؟

- لقد مات!

- من؟

- الرجل المتعلم.

- أتعني فيليب؟ آه!

فصاح به طيابا مؤنبًا:

- يا إلهي الطيب! هل نسيت بهذه السرعة؟

فنهض الكابتن على قدميه، وتثاءب بصوت عال، وتمطع حتى

طقطقت عظامه، قائلًا:

- حسنًا، إذَنْ! اذهب واعمل اللازم.

فقال طيابا مكتئبًا:

- سأذهب... ولكني لا أحبهم.

- حسنًا، إذَنْ اذهب وأيقظ الشماس... سأذهب لألقي عليه نظرة.

ودخل الكابتن الوكالة ووقف عند أقدام المدرس، كان الميت مستلقيًا ممددًا يده اليسرى على صدره، واليمنى ملقاة إلى الوراء، كأنها تستعد لضرب أحد.

وقدر الكابتن أنه إذا نهض المدرس الآن فسيكون في طول تاراس، ثم جلس بجانب الميت، وتنهد وهو يتذكر أنهما أمضيا ثلاث سنوات معًا. ودخل طيابا، حاملًا رأسه كعنزة تستعد للنطح، وجلس على الحافة الأخرى من الفراش، ونظر إلى الوجه المظلم، هادئًا جادًّا مضموم الشفتين، وبدأ يتأوه:

- إذَنْ... لقد مات.. أنا أيضًا سأموت قريبًا.

فقال الكابتن مقطب الجبين:

- معًا.

فوافقه طيابا قائلًا:

- إنه كذلك.. يجب أن نموت.. أي شيء أحسن من الموت؟

- ولكن ربما كان الموت أسوأ، من أين لك أن تعرف؟

- لا يمكن أن يكون أسوأ؛ لأنه إذا مت فلن تتعامل إلا مع الله، ولكنك هنا تتعامل مع الناس، والناس وحوش لا يساوون شيئًا.

فقاطعه كوفالدا غاضبًا:

- كفى... اسكت.

وساد ظلام الوكالة الحقيرة هدوء ساكن، وجلسا مدة طويلة عند قدمي الميت، ينظره كل منهما بين الحين والحين وهو غارق في التفكير، ثم سأله طيابا:

- هل ستدفنه؟

- أنا؟ لا، دع البوليس يدفنه!

- الأفضل أن تدفنه أنت... فقد أخذت من فافيلوف النقود التي يستحقها على كتابة العريضة، وسأعطيك النقود إذا لم يكن لديك ما يكفي.

وهدده قائلًا:

- هذا خطأ، إنك بقولك هذا تسرق نقود الميت، سأخبرهم جميعًا أنك تريد الاستيلاء على نقوده.

فقال كوفالدا:

- إنك أبله! أيها الشيطان العجوز!

- لست غبيًّا.. ولكن عملك ليس حقًّا ولا صداقة.

- كفى! كفى! اخرج.

- كم النقود؟

فقال كوفالدا شارد الذهن:

- خمسة وعشرين روبلًا.

- إذَنْ، يمكنك أن تعطيني خمسة روبلات.

فسبه الكابتن وهو يحملق ذاهلًا في وجهه قائلًا:

- أنت وغد عجوز!

- حسنًا، ماذا تقول؟ لن تعطيني؟

- اذهب إلى الشيطان.. إني بسبيل إنفاق هذه النقود على إقامة أثر له.

- وفيما ينفعه ذلك؟

- سأشتري حجرًا ومرساة، أضع الحجر على القبر، وأربطه بالمرساة بسلسلة متينة، كما أن الحجر أيضًا سيكون ثقيلًا.

- لماذا؟ وما السر في ذلك؟

- لا دخل لك.

فهدده طيابا ثانية:

- اسمع! سأخبرهم.

فقاطعه أرستيد فوميتش وهو ينظر إليه قائلًا:

- أصغ.. إنهم آتون!

فنهض طيابا ذاهبًا إلى الوكالة.

وظهر بالباب عندئذ الطبيب ومفتش البوليس والحانوتي كل منهم وراء الآخر، ونظروا إلى المدرس الميت، وألقوا نظرات مشتبهة على كوفالدا الذي كان جالسًا هناك دون أن يعيرهم التفاتًا، وسأله البوليس:

- ما سبب وفاته؟

- اسأله.. أظن من نقص العادة.

فتساءل الحانوتي:

- ماذا؟

- أقول إنه مات لأنه لم يكن معتادًا على المرض الذي أصابه.

- طيب، هل مرض مدة طويلة؟

وقال الطبيب متبرمًا:

- أحضروه إلى هنا، فلا تمكنني رؤيته بوضوح هناك، قد يكون فيه ثمة علامات!

فأمر مفتش البوليس كوفالدا قائلًا:

- والآن، اطلب من أحدكم أن يحمله إلى الخارج.

فأجابه الكابتن بغير اكتراث:

- اذهب واطلب منهم بنفسك.

فصاح المفتش وهو يغتصب ابتسامة تنذر بالسوء:

- حسنًا!

فقال الكابتن بصوت كالفحيح، دون أن يتحرك من مكانه، وقد امتلأ غضبًا:

- إخص!

فصاح المفتش وقد اندفع الدم إلى وجهه غيظًا:

- ليأخذك الشيطان! سأجعلك تدفع ثمن هذا كله! سأ...

- صباح الخير يا سادة.

قالها التاجر بتنيكوف وقد ظهر عند عتبة الباب، وألقى حوله نظرة فاحصة، واهتز، ونزع قبعته ورسم علامة الصليب بتقوى، ثم غمرت وجهه ابتسامة ظافرة شريرة، وحدَّج الكابتن بنظره وتساءل:

- ماذا حدث؟ هل وقعت هنا جريمة قتل؟

فأجابه الحانوتي:

- أجل، شيء من هذا القبيل.

فتنهد بتنيكوف من أعماقه، ورسم علامة الصليب ثانية، وقال في نبرة حزينة:

- يا ذا الحول والقوة. إن الأمر كما توقعت تمامًا، كل مرة نظرت فيها هنا شعرت بالخوف البارد يغمر قلبي، إي؟ إي؟ إي؟ ليحفظنا

الرب جميعًا. هكذا كنت أقول وأنا عائد إلى منزلي، رفضت مرات لا عدَّ لها تأجير المنزل لذلك الرجل الواقف هناك -كأنه رئيس يلقي الأوامر- ولكني خفت آخر الأمر، فأنت لا تجهل أنهم أناس متهورون، ولقد فكرت في هل الأفضل أن أسلم الأمر لهم، أو...

وأتى حركة غامضة بيده وهو يمررها على وجهه، وهز بها ذقنه، ثم تنهد ثانية وقال:

- إنهم رجال خطرون، وهذا الرجل الواقف هناك قائدهم، بل هو في الحقيقة زعيم لصوص.

وتوعد الكابتن وهو ينظر إليه شزرًا:

- سنريه، فهو معروف لديَّ جيدًا.

فقال كوفالدا في ألفة:

- أجل، أيها العجوز، إننا أصدقاء قدماء، فكم مرة رشوتك وأتباعك لتلزموا الصمت؟

فصاح المفتش:

- أيها السادة! هل سمعتم ما يقول؟ لأدفعنه الثمن، آه، يا صديقي، سأتذكر هذا! آه ها ها ها، سأدبر لك عملًا صغيرًا، يا صديقي، فلتذكر!

فقال أرستيد فوميتش بهدوء:

- لا تعد الكتاكيت قبل فقسها.

فنظره الطبيب الشاب ذو النظارات متعجبًا، والحانوتي بانتباه

لم يساعده على فهم شيء، وبتنيكوف بنشوة المنتصر، بينما صاح المفتش، وقد خطا نحوه ناشرًا قبضتيه.

وظهر وجه ماريتانوف القاتم على عتبة الوكالة، دخل بهدوء ووقف، فلف بتنيكوف بحيث كانت ذقنه في مستوى رأس التاجر، ووقف خلفه الشماس، فاتحًا عينيه الصغيرتين المنتفختين الحمراوين إلى آخرهما.

قال الطبيب:

- دعونا نعمل يا سادة.

وبدت على وجه ماريتانوف القاتم تكشيرة مخيفة، ثم عطس فجأة فوق رأس التاجر، فصرخ الأخير وجثم على ركبتيه، ثم قفز هاربًا، فصدم المفتش وسقط على الأرض مفتوح الذراعين.

قال التاجر المرعوب وهو يشير إلى ماريتانوف:

- ها قد رأيت أي نوع من الناس هم!

فنفجر كوفالدا ضاحكًا، وابتسم الطبيب والحانوتي أيضًا، بينما كان عدد الرجال يتزايد عند باب الوكالة.

رجال لم يفارقهم النوم بعد، وجوههم منتفخة، وعيونهم حمراء ملتهبة، وشعورهم مشعثة، يحدقون مستغربين في الطبيب والحانوتي والمفتش.

«ممنوع الدخول».

هكذا فاجأهم الشرطي حارس الباب، وهو يدفعهم وينحيهم جانبًا، ولكنه كان واحدًا إزاء كثيرين، فدخلوا كلهم على حين غرة منه، ووقفوا هناك ثملين صامتين ينذرون بالشر.

ونظر كوفالدا إليهم ثم إلى رجال الشرطة المشدوهين من دخول هؤلاء الصعاليك، وقال وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى:

- يا سادة، ربما تحبون التعرف بمستأجريّ وأصدقائي، ألا تحبون؟ على أي حال، سواء كنتم تحبون أم لا، فإنكم ستتعلمون سريعًا كيف تتعرفون بهم من خلال أعمالكم إن عاجلًا أو آجلًا.

فابتسم الطبيب مرتبكًا، وزم الحانوتي شفتيه، ورأى المفتش أن هذا وقت انصرافه، فصاح:

- سيدروف! أطلق صفارتك! وكلفهم بإحضار عربة إلى هنا.

وقال بتنيكوف وهو يتقدم من زاوية:

- سأذهب الآن، وخير لكم أن تتركوه أو أدعو البوليس!

ودوى صوت صفارة الشرطي مجلجلًا في الفناء.

وعند باب الوكالة وقف سكانها يتثاءبون ويحكون ذقونهم.

وضحك أرستيد فوميتش قائلًا:

- إذَنْ أنت لا تريد أن تدعو البوليس؟ تلك وقاحة منك.

فتناول بتنيكوف كيس نقوده من جيبه، وفتحه، وأخرج قطعتين من ذات الخمسة كوبكات وضعها عند قدمي الميت، ورسم عليه علامة الصليب، وقال:

– ليرحمه الله.. هذه لأجل دفن التراب الخاطئ.

فصرخ الكابتن:

– ماذا؟ أنت تعطي هذه لدفن الميت؟ خذ هذه النقود يا وغد! خذها أقول لك! كيف تجرؤ على إعطاء كوبكاتك المسروقة لدفن رجل شريف؟ سأقطعك إربًا إذا لم تأخذها.

«سعادتك»...

صاح التاجر المرعوب مستنجدًا بالمفتش وهو يمسكه من ذراعه واندفع الطبيب والحانوتي خارجين، وصاح المفتش:

– سيدروف، تعالَ هنا!

ووقفت (المخلوقات التي كانت رجالًا) عند باب متين في الحائط تنظر وتصغي باهتمام أضاء ملامحها الحزينة، وزأر كوفالدا هازًّا قبضته في وجه بتنيكوف مقطبًا ما بين عينيه اللتين يكاد يتفجر منهما الدم، وبدا كالحيوان المفترس:

– وغد ولص! خذ نقودك، أيها الدودة القذرة! خذها وإلا ألقيت بها في زورك المنتن... خذ الكوبكات العشرة وإلا...

فمد بتنيكوف يدًا مرتعشة إلى قطعتيه، ورفع الأخرى يحمي بها نفسه من قبضة كوفالدا، وقال:

– إنك شاهدي، يا سيدي المفتش، وأنتم أيضًا أيها الناس المحترمون.

فقال كومة عظام بصوته المرتعش:

- لسنا محترمين يا تاجر.

وتنهد المفتش نافد الصبر، نافخًا خديه كأنهما بلونتين، وامتدت يده الأخرى تحمي بتنيكوف الذي كان يتضاءل أمامه كأنه يريد الاختباء في بطنه.

وقال كوفالدا وهو يقبض عليه من رقبته ويقذفه نحو الباب كأنه مجرد كتكوت:

- أيها الضفدع القذر! أأجبرك على تقبيل قدمي الميت؟ أتحب ذلك؟

فقفزت المخلوقات التي كانت رجالًا جانبًا لتفسح للتاجر مكانًا يسقط فيه، فسقط عند أقدامهم، وهو يصرخ في رعب وحشي:

- جريمة قتل! الحقوني! جريمة قتل!

فرفع ماريتانوف قدمه ودفعها في رأس التاجر، وبصق كومة عظام في وجهه، وقد بدت عليه تكشيرة عارمة، فأحال التاجر نفسه كرة وزحف على يديه وقدميه إلى الفناء، مثيرًا ضحك الجميع، ولكن في هذا الوقت وصل اثنان من رجال البوليس، وصاح المفتش وهو يشير إلى كوفالدا قائلًا:

- اقبضا عليه، وقيداه يدًا وقدمًا.

واستعطفهما بتنيكوف قائلًا:

– قيداه.

فقال كوفالدا وهو يخلص نفسه من رجلي البوليس اللذين اندفعا نحوه:

– ابعدا.. لن أهرب... سأذهب على قدمي.

واختفت «المخلوقات التي كانت رجالًا» واحدًا إثر آخر، ودخلت عربة الفناء، وحمل بعض الصعاليك الممزقي الثياب جثة الميت خارجًا.

وصاح المفتش في كوفالدا:

– سأربيك! انتظر فقط!

ولكن كوفالدا كان هادئًا الآن، وقف معتدلًا صامتًا بين رجلي البوليس يراقب جثمان المدرس وهو ينقل إلى العربة. كان الرجل الممسك بالجثة من تحت ذراعيها قصيرًا، فلم يستطع وضع الرأس في العربة وقت وضعت فيه القدمان، فتعلق الجسد دقيقة كأنه يريد أن ينحدر مباشرة ويخفي نفسه في الأرض، بعيدًا عن هؤلاء الأغبياء الأشرار الذين يزعجون هدوءه.

وألقى المفتش أمره مشيرًا إلى الكابتن:

– خذوه.

فتحرك كوفالدا إلى الأمام هادئًا دون احتجاج، مقطبًا الوجه، مارًّا بالعربة التي يرقد فيها جثمان المدرس، محنيًا رأسه، فلم يرها، وتبعه ماريتانوف.

وانحدرت العربة على سطح الفناء الصلد، وكانت بطن المدرس تهتز تحت الخرق المغطى بها، وكأنه يضحك بلطف وغبطة؛ لأنه ترك الوكالة أخيرًا، ولن يعود إليها أبدًا... أبدًا.

ورسم بتنيكوف علامة الصليب على صدره وهو يشيع العربة بعينيه، ثم شرع يزيل بقبعته الغبار والقاذورات التي علقت بملابسه، ولما أزال الغبار عن معطفه، ابتسم وجهه رضاء.

كان لا يزال يمكنه أن يرى شكل الكابتن الطويل الأشيب، بقبعته المحاطة بشريط أحمر، كأنه شريط من الدم، ويداه مقيدتان خلف ظهره، وهو يقاد عبر الشارع إلى الجبل.

فابتسم بتنيكوف ابتسامة المنتصر، وعاد أدراجه إلى الوكالة، ولكنه توقف فجأة والخوف يغمره، فقد واجهه عند الباب رجل عجوز يحمل عصا في يده وبقجة كبيرة على ظهره، رجل عجوز مخيف في خرق وأسمال تغطي جسده العظمي، وقف مثقلًا بحمله، حافيًا، رأسه على صدره كأنه يتهيأ لضرب التاجر.

صاح بتنيكوف:

- ماذا تريد؟ من أنت؟

فأتاه صوت أجش غليظ يقول:

- رجل...

وطمأنت هذه الخشونة نفس بتنيكوف، بل حملته على الابتسام.

- رجل! وهل ثمة رجال مثلك؟

فخطا جانبًا ليفسح الطريق للرجل الذي تابع طريقه وهو يتمتم ببطء:

- هناك رجال من كل نوع، كما يريدهم الله أن يكونوا، هناك من هم أسوأ مني، حتى أسوأ... أجل.

وتعلقت سحابة قاتمة فوق الفناء القذر والرجل الضئيل الأنيق الذي يسير على الأرض يقيس كل شيء بخطواته وعينيه الصغيرتين الحادتين، وحلق غراب فوق سطح البيت القديم ونعق عاليًا، مادًّا رأسه إلى الأمام ثم يطير جيئة وذهابًا، كان ثمة شيء كثيف في السحب القاتمة الثابتة التي حجبت السماء، شيء لا يرحم كأنها ائتلف بعضها بعضًا عازمة على أن تصب سيولًا من الأمطار تغسل كل حقارة عن وجه هذه الأرض التعسة الحزينة.

* * *

قايين وأرتيوم

كان قايين يهوديًّا نحيلًا ضئيلًا، خفيف الحركة، ذا رأس مستدير أصلع، ووجه نحيف بيضاوي تكسوه خصلات من شعر أحمر أشعث، يحجب الجزء الأعلى منه مقدم قبعته القذرة، تستبين منه عينين مشعتين صغيرتين رماديتين -يزينهما حاجبان أحمران منتفشان- لا تستقران على شيء، تهيمان في محجريهما، تشعان نظرات سريعة خائفة في كل اتجاه، تصحبها دائمًا ابتسامة ذليلة مسترحمة لا تفارق شفتيه.

ويستحيل على المرء أن يرى نظراته هذه ولا يدرك في الحال أن الشعور السائد في هذا الرجل هو الخوف من كل شيء وكل إنسان، خوف يمكن أن يتحول في أي لحظة إلى رعب حقير سافل.

وعمل الأشقياء على إشاعة الرعب في نفسه بألاعيبهم وإهاناتهم، وبدا كأن كل ما فيه يساهم في هذا الشعور، من أعصابه إلى ملابس الخيش الواسعة التي تغطي جسده الهزيل من الكتفين إلى العقبين.

كان اسم اليهودي حاييم هارون برفيتس، ولكنه اشتهر بقايين، فهو أبسط وأكثر شيوعًا من حاييم، وفيه الإهانة كلها؛ ضئيل يلائم وجهه النحيل، حتى بدا للجميع أنه ينطبق على اليهودي تمامًا ويصف جسده وروحه.

كان يعيش بين الذين أساء إليهم القدر، ممن تسرهم -مثله- الإساءة إلى جيرانهم، فما كان في أيديهم سلاح غيرها يثأرون به لأنفسهم، وكانت الإساءة إلى قايين عملًا سهلًا، فقد كان عندما يسخرون منه ويعبثون به لا يرد عليهم إلا بابتسامة مسترحمة مستعيذة، بل يشاركهم أحيانًا في تعذيبهم له، كأنه يريد أن يدفع مقدمًا لمعذبيه ثمن عيشه بينهم، كان يرتزق من التجارة، يتجول في الشوارع حاملًا أمامه صندوقًا خشبيًّا، مناديًا بصوت رفيع كريه:

- ورنيش! كبريت! دبابيس! إبر! خردوات!

وكانت سمته التي ينفرد بها، أذنان كبيرتان، تبرزان من مؤخر وجهه، وتتحركان باستمرار كأنهما أذنا حصان شديد الحساسية.

كان يحمل بضاعته إلى شيخان، وهي ضاحية يعيش فيها أفقر الناس وأبأسهم، وجماعات من الأوباش. وشيخان هذه عبارة عن شارع واحد ضيق، تمتد على جانبيه منازل قديمة عالية كريهة المنظر، تكمن بينها مخابئ ليلية، وحانات ودكاكين تبيع الخبز ومحال للبقالة، وأماكن يباع فيها الحديد وأشياء أخرى متنوعة، أما السكان فمعظمهم من اللصوص ومهربي البضائع المسروقة، وتجار الخردة، وعاهرات وقوادات.

أما الشارع، فالظل يغمره دائمًا بفضل ارتفاع المباني على جانبيه، وتعج أرضه بالوحل والسكيرين، ويعبق في أيام الصيف ولياليه بروائح المواد المتعفنة والخمر، ولا تعوده الشمس إلا في الصباح حذرة متعجلة، كأنها تخشى أن يلوث الوحل أشعتها النقية.

وهذا الشارع الممتد بحذاء سفح التل وبجوار نهر كبير، يعج دائمًا بعمال السفن، والبحارة الذين يقضون إجازاتهم على الشاطئ، وحمالين يشتغلون بشحن السفن وتفريغها، وهنالك أيضًا يتسكع النشالون في أركان ملائمة يتحينون فرصتهم عندما تفعل الخمر مفعولها.

وتعوق طريق السابلة أوانٍ مملوءة قطعًا من اللحم صغيرة محمرة، وصواني الحلوانية وبائعي الكبدة وعمال قدموا من الميناء وازدحموا حولها يزدردون الطعام الساخن بشراهة، وسكارى يرفعون عقائرهم بغناء قبيح منافسين بعضهم بعضًا، وباعة يعلنون عن بضائعهم بأصوات عالية، والعربات تروح وتغدو حولهم مخترقة طريقها بصعوبة بين حشد الناس الذين انحنوا يشترون ويبيعون أو وقفوا ينتظرون عملًا، أو يتحينون فرصة «كده أو كده». وكان هذا الخليط من الأصوات يملأ الشارع -الضيق كالخندق- ويتكسر على جدران المنازل القذرة المغطاة بالقروح، بينما ملاطها المتحلل يتساقط قطعًا صغيرة في كل اتجاه.

في هذا الخندق الغارق في أقذاره، وخلال الضوضاء التي تصم

الآذان، والألفاظ الوضيعة تروح وتغدو أطفال أعمارهم مختلفة، ولكنهم متساوون في البؤس والقذارة؛ بطونهم خاوية، ونفوسهم منحطة، يهيمون على وجوههم من الصباح إلى المساء، معتمدين في معيشتهم على عطف الباعة وخفة أيديهم الصغيرة، ينامون ليلهم حيث يستطيعون؛ في حمى أعتاب المنازل أو تحت حاجز أقامه بائع فطائر، أو على حافة شباك قبو، ولا يكاد الفجر يختلس طريقه بين سدول الظلام حتى تنهض ضحايا داء العظام الناتج من سوء التغذية، وداء الخنزير، وتبدأ يومها إما بسرقة ما تصل إليه أيديها من قطع مختارة، أو استجداء ما لم يعد صالحًا للبيع -لمن ينتمي هؤلاء الأطفال؟ إلى كل إنسان، إنهم هنا، في الشارع الذي يجول فيه قايين يومًا بعد آخر مناديًا على بضائعه التي يبيعها للنسوة- وكان من عادتهم أن يقترضوا من قايين عشرين كوبكًا لعدة ساعات على أن يردوها اثنين وعشرين، فما كانوا يخلفون وعدهم أبدًا، وكان قايين يقوم عادة بعمل كبير في الشارع؛ فهو يشتري القمصان والقبعات، والأحذية، وآلات الأوكورديون من رجال الطرب، ويشتري من النسوة جونلاتهن، وصديرياتهن، وأنواع أخرى رخيصة من الزينة، ويبادل هذه البضائع بغيرها أو يبيعها بربح قدره عشرة كوبكات، ويتعرض في كل مرة لضرباتهن وسخريتهن، بل كن يجلدنه أحيانًا فلا يشكو أبدًا، وإنما تلك الابتسامة الرقيقة المؤسية هي كل رده على قسوتهن.

وكان يحدث أحيانًا أن يسطو على قايين في ركن مظلم من المدينة اثنان أو ثلاثة من الشبان أثار ثائرتهم الجوع أو العطش، فيتداعى اليهودي أرضًا في الحال خوفًا منهم أو من كلماتهم، ويرقد عند أقدام المعتدين عليه مرتجفًا واضعًا يديه في جيبيه صائحًا في صوت مذعور مستعطف:

– يا سادة، أيها السادة الطيبون، لا تأخذوا كل كوبكاتي وإلا عجزت عن الاستمرار في تجارتي!

ويرتعش وجهه تحت ابتساماته التي لا حصر لها.

– حسنًا، دعك من الصراخ! أعطنا ثلاثين كوبكًا فقط.

فقد كان هؤلاء السادة الطيبون يعرفون جيدًا أن البقرة تقبض ضرعها إذا ما أريد استدرار لبنها، وينهض قايين ويسايرهم وهو ينكت معهم ويبتسم لهم، ويتنازل الشبان إلى درجة أن يحادثوه.

ولا يعقب أمثال هذه الحادثة إلا أن يظهر قايين وقد ازداد نحولًا.

ولم يكن يبدو عليه أنه وثيق الصلة بأهل دينه، فنادرًا ما يرى سائرًا مع أحدهم، وحتى في هذه المرات النادرة كان من البين أن الآخر يعامله باحتقار شديد، بل كان الشائع أن قايين خارج الهيئة، وتدعوه نسوة الباعة الجائلين بالملعون، فقد كان يظهر دلائل صادقة على مروقه، كأن يعمل يوم السبت، ويأكل ما حرمه دينه من طعام، وكثيرًا ما كان يحاصر بالأسئلة، فيسأله امرؤ ويصر آخر على أنه يجب أن

يوضح سبب أكله أشياء يحرمها دينه، فينكمش في نفسه، ويبتسم، ويتهرب من الأسئلة المطروحة عليه بجواب فكه، أو بطريقة لا تدلهم على شيء من معتقداته أو دينه.

حتى الأطفال التعساء كانوا يلاحقونه خلال الشوارع، ملقين ملء أيديهم وحلًا أو قشور بطيخ، أو أشياء أخرى قذرة على ظهره أو في صندوقه، فيحاول صرفهم عنه بالكلام الرقيق، ولكن يغلب أن يخترق الزحام الكثيف بصندوقه، فلا يجرؤون على ملاحقته خوفًا من أن تدوسهم الأقدام.

هكذا كان يعيش قايين من يوم ليوم، معروفًا من الجميع، مضطهدًا من الجميع، حاملًا بضاعته -وهو يرتجف خوفًا- ويبتسم، فلا يلبث أن يبتسم له الحظ فجأة بدوره.

لا يخلو مكان في هذا الكون من مستبد جبار، وكان أرتيوم الجميل يقوم بهذا الدور في شيخان، وهو شاب جميل، ذو رأس مستدير تكسوه غابة من شعر أسود مموج، تنحدر خصلاته حتى حاجبيه القطيفيين اللينين، أما عيناه فكبيرتان سوداوان أشبه بلوزتين يظللهما ندى لطيف، وأنفه روماني مستقيم، وشفتاه حمراوان ممتلئتان، يتوجهما شارب أسود كبير، وبيضاوية وجهه الملوح ذات انتظام عجيب، وتقاطيعه جميلة جمالًا لطيفًا بسيطًا، وكان عريض المنكبين، طويلًا، هائل الحجم، يلوح عليه اكتفاء لاشعوري بذاته... كان مصدر رعب لرجال شيخان وموضوع لذة لنسائها، وكان يقضي

أغلب يومه مستلقيًا حيثما اتفق، ولكنه كان يؤثر الرقاد في الشمس، حيث يستلقي ساندًا نفسه بكوعه، مسترخيًا، يحتسي جرعات صغيرة من الهواء النقي والنور، وصدره القوي المتين يرتفع وينخفض مع تنفسه المنتظم الثابت.

كان يناهز الخامسة والعشرين، قدم المدينة من ثلاث سنوات مع جماعة من حمالي السفن من برفرينو، لم يغادرها بعد أن أقبل الشتاء، وانتهى موسم السفن، وأصبح في مقدوره أن يحيا في يسر دون أن يؤدي عملًا، بعد أن فرض نفسه على أهل المدينة بقوته وجماله، فارتقى من مجرد كونه فلاحًا وحمَّالًا إلى معبود نسوة الباعة الجائلين، والبقالين وغيرهن من نساء شيخان. وكان هذا العمل يمده بكميات كبيرة من الطعام، والفودكا، والتبغ، وقتما يحتاجها، وما كان يريد غيرها شيئًا، وهكذا كانت تمر أيامه.

وكانت النسوة تسب كل منهن الأخرى بسببه، وتتعاركن عليه، فتبلغ سمع أزواجهن قصص من أفعاله معهن تسبب لهن علقات دامية.

ولم يكن أرتيوم يأبه لشيء من هذا كله، وإنما يستلقي ممددًا تحت الشمس كأنه قط يدفئ نفسه، وينتظر حتى تحركه رغبة من رغباته.

وكان يختار دائمًا مرقده على التل الذي يحد الشارع، فالنهر عن يمينه، والحقول بجواره تمتد حتى الأفق، تقطع القرى سطحها

الأخضر المنبسط، أشبه ببقع غبراء، وإذا التفت يسارًا أمكنه أن يرى الشارع، وهو يموج بالحياة الصافية، فإذا أمعن النظر في هذه الكتلة المظلمة المائجة تبين الأشخاص المشهورين في الشارع، وسمع زئيره الجائع، وربما خطرت بباله فكرة أو فكرتان.

وحول مرقده المختار نمت أعشاب كثيفة مرتفعة، وقامت بعض أشجار بلوط هرمة لها طابع بؤس موحد، وهنالك كان المشاغبون يأتون لينامواء، وقد أثقلت الخمر رؤوسهم أو ليلعبوا الورق، أو لينظفوا خرقهم، ويريحوا أنفسهم من عناء العمل ومعارك الحانة.

ولم يكن أرتيوم يتمتع بشهرة طيبة بينهم، فقد كان يعاملهم بخشونة وجفاء استنادًا إلى قوته العاتية، وقد أيقظت هذه العوامل كلها روح الحسد فيهم، كما أنه يندر أن يشارك أحدًا في غنائمه؛ لأن روح الزمالة تنقصه، ولكن إذا أتاه امرؤ وبدأه الكلام، لم يكن يصدف عن إجابته، أما هو فلم يكن ليبدأ الحديث أبدًا. وإذا استجداه أحد نقودًا أعطاه، ولكنه لا يعطي إذا لم يطلب منه، رغم أن العادة جرت بين إخوانه بأن يأكلوا ويشربوا حتى آخر كوبك معهم.

وكان أرتيوم يتقبل رسل الحب وهو كامن بين الأغصان، ورسل الحب هؤلاء كانوا صبية في أسمال قذرة حديثي السن، بين السابعة والثامنة، ونادرًا ما تقرب سنهم من العاشرة، ولكنهم كانوا يشعرون

بخطورة مهمتهم وأهميتها، فيقولون له هامسين، وثمة تعبير غامض على وجوههم القبيحة القذرة:

– عم أرتيوم، خالتي ماريا كلفتني أن أقول لك إن زوجها غائب، وأن عليك أن تستأجر قاربًا لتأخذها إلى المزارع اليوم.

– أوه!

كان أرتيوم يقولها في بطء وتكاسل، وقد لاحت الابتسامة في عينيه الناعستين.

– لقد قالت لي إنك يجب أن تحتاط وتعمل ما طلبت.

فيجيبه أرتيوم:

– أجل، سآتي، ولكن أخبرني الآن، ماذا تشبه خالتك ماريا هذه؟

فيجيبه الرسول معاتبًا:

– لماذا تسأل؟ إنها زوجة بقال من بقالي المدينة طبعًا.

– آه، أجل، ودكانها بجوار الدكان الذي تباع فيه الخردة.

– لا، بل الدكان المجاور لدكان أنيسا نيكولديفنا.

– أجل، أجل، إني أعرف هذا يا أخي الصغير، وإنما سألتك مازحًا فقط، وهل تظن أني نسيت؟ أنا أعرف ماريا جيدًا.

ولكن المرسال، وهو غير مقتنع بكلامه، وقلق على تنفيذ التعليمات التي يحملها إليه، يصر على أن يزيد الأمر وضوحًا لأرتيوم، فيردف:

- ماريا هي السيدة الصغيرة الوردية الخدين التي بجوار بائع السمك.

- تمام، إنها التي بجوار بائع السمك، أي قرد عجيب أنت! أظننت أني أخطأت، حسنًا. اجر وأخبر ماريا. إني آت. اذهب الآن!

وهنا يلقي المرسال بأكثر أقواله نفاقًا وتحايلًا:

- عم أرتيوم.. أعطني كوبكًا.

فيجيبه أرتيوم وهو يدس يديه في جيبه:

- كوبك، ولكن افترض أنه ليس لدي كوبك؟

ولم يكن يخونه العثور أبدًا على عملة من أي نوع، وينطلق المرسال بأقصى سرعته ضاحكًا مرحًا ليدلي بالجواب إلى بائعة الكبدة المحبة التي حمل رسالتها ليقبض مكافأته، فهو يعرف قيمة النقود ويحتاجها؛ لا لأنه جائع فقط، بل لأنه يدخن السجائر، ويشرب البراندي، وله أيضًا مشاغل قلبه الخاص. وكان أرتيوم يبدو في اليوم التالي أكثر ابتعادًا عن العالم ومؤثراته، وأشد روعة بقوة جماله الحيواني النادر.

وهكذا كان يحيا حياته التي لا نفع فيها، من يوم ليوم، في حالة حالمة لا شعورية، لا تزعجه غيرة النساء ولا كراهية الرجال وحسدهم، هادئًا آمنًا في ظل قبضته العاتية.

ولكن أحيانًا تلوح في عيني الشاب الجميل نظرة قاتمة تنذر

بالسوء، ويتلاقى الحاجبان القطيفيان في تقطيبة غاضبة، ويبدو خط عميق على جبهته السمراء، وينهض من مرقده، ويدع جسده يذهب في اتجاه الشارع.

وكلما اقترب من جمهوره، أصبح إنسانًا عيناه أكثر استدارة، وازداد خيشوماه الرقيقان ارتعاشًا، وقد تعلقت بكتفيه صديرية من قماش أصفر خشن تبدو من تحتها كتفان هائلان قويان، وكان يفضل على الأحذية الطويلة صندلًا من ليف النبات بأربطة من قماش أبيض تلتف حول ساقيه بدل الجوارب لتترك عضلات ساقيه حرة طليقة، ويسير قدمًا متمهلًا، كأنه سحابة هائلة تنذر بالويل.

كانت عاداته معروفة جيدًا في الضاحية، ويستطيع كل فرد أن يخبر ما يتوقع منه من مجرد النظر إليه، لذا كان الناس، عندما يرونه، يحذر بعضهم بعضًا قائلين:

- أرتيوم يقترب.

ويسرع الجميع إلى إفساح الطريق أمام الشاب الجميل، فتسحب جانبًا السلال والبضائع المعروضة للبيع والأواني الفخارية المليئة باللحم الساخن، ويخلع عليه الجميع بسمات الملق والتمنيات الطيبة، ويقف الحشد كله مرعوبًا. أما هو فيشق طريقه بين علامات الإعجاب بشخصه، متجهمًا صامتًا، كأنه وحش هائل من وحوش الغابة يستعرض جماله الوحشي.

وتتعلق قدمه بسلة بها كبد ورئات، فتتبعثر محتوياتها عل الطريق

الموصل، ويصيح المالك ويسب.

فيسأله أرتيوم بهدوء المتوعد:

- ولماذا تضعها في طريقي؟

فيصيح البائع:

- وهل الطريق ملكك يا ثور؟

- ولكن افرض أني أريد السير هنا!

وتنتفخ العروق في وجنتي أرتيوم، وتبدو عيناه أشبه بمسمارين ساخنين، فيتنبه البائع ويتمتم آسفًا:

- حقًّا ليس الشارع واسعًا بما فيه الكفاية!

فيعاود أرتيوم سيره، ويذهب ضحيته إلى إحدى الحانات، ويطلب ماء ساخنًا ليغسل بضاعته، ويسمع بعد خمس دقائق مناديًا بأعلى صوته:

- كبدة! رئات! قلب ساخن! تعال اشترِ يا بحار، أقطع لك قطعة لسان بخمسة كوبكات، خذي قطعة من هذه الرقبة يا خالة، من يريد قلبًا ساخنًا؟ كبدة! رئات!

ويرتفع هذا المزيج المبهم من الأصوات ويسقط في الهواء الكثيف المشبع برائحة المواد العفنة والبراندي والحلوى والسمك والقطران والبصل، ويزدحم الناس في الطرقات، معرقلين مرور العربات، منادين على بضائعهم، يبيعون ويشترون

ويضحكون. كل شيء قاتم، فالناس تعلو وجوههم سحابة معتمة، ومن الشارع تتصاعد سحب الغبار، حتى المنازل تبدو رطبة تلطخها الأوحال.

ويرتفع صوت اليهودي النحيل مناديًا -وهو يسير خلف أرتيوم الذي يرعبه أكثر من الآخرين-:

- خردوات! إبر! خيط!

وتغني طباخة شابة بصوت صاف:

- من يشتري ويأكل الحلوى؟

وتصيح بائعة أخرى:

- البصل! البصل الأخضر!

وينادي رجل سمين عجوز أحمر الوجه، وقد جلس داخل برميل:

- الكرفس! الكرفس!

ورجل آخر -يعرف بين الناس باسم «العريس القذر»- منهمك في بيع قميص قديم -ولكنه كامل الظهر- لأحد عمال الميناء، وهو يصرخ فيه مؤكدًا:

- يا غبي! من أين ستحصل على قطعة نادرة كهذه بعشرين كوبكًا؟ إنك وهذا القميص على ظهرك يمكنك أن تذهب وتطلب يد أرملة تاجر ثري؟ امرأة ذات ملايين، يا إبليس؟

ومن بين ثنايا هذا الضجيج تفاجأ بسماع صوت طفل يستجدي:

- لأجل خاطر المسيح، أعط كوبكًا لطفل شريد لا أم له ولا أب.

ويقع اسم المسيح غريبًا نابيًا في آذان الجمع المحتشد في الشارع.

وينادي صوت أرملة الجندي الحنون - «داريا جروموقا» الممتلئة صحة وعافية والتي تبيع فطائر محشوة باللحم-:

- أرتيوم. تعال. أين كنت مختبأً؟ هل نسيتنا؟

فيسألها أرتيوم بهدوء:

- هل كان الشغل حسنًا؟

وبلمسة من قدمه يقلب بضاعتها، فتنزلق الفطائر الصفراء المتأنقة على أحجار الطريق، وتصيح «داريا» غاضبة مستعدة للعراك:

- أيها الوغد الوقح؟ يا قاتل! كيف يمكن للأرض أن تحملك يا جمل أسطرخان؟

ويضحك من حولها من الناس، فهم يعرفون أن أرتيوم لن يصعب عليه الحصول على عفوها، ويستأنف أرتيوم سيره؟ مبعدًا الجميع عن طريقه، طارحًا بعضهم أرضًا، هارسًا أقدام الآخرين، وكلما سار انبعثت تمتمة أشبه بالفحيح بين الناس محذرين بعضهم بعضًا قائلين:

- أرتيوم يقترب.

فحتى من يسمع هاتين الكلمتين لأول مرة يتبين التهديد فيها ويفسح الطريق أمام أرتيوم، وهو يحملق بخوف ودهشة في الشاب القوي الجميل.

ويقترب أرتيوم من بائع خبز يعرفه، فيحيي أحدهما الآخر، ويضغط أرتيوم يد صديقه، فيصيح ألمًا وينفجر سابًّا، فيضغط أرتيوم على كتفه بأصبع من حديد، أو يبتدع طريقه لإيذائه، وينظر هادئًا إلى الرجل الذي يسب ويصرخ وهو في قبضته موشكًا على الاختناق، ويصيح قائلًا:

- دعني أيها الجلاد اللعين!

ولكن الجلاد كالقاضي لا يرحم.

وكثيرًا ما كان قايين يقع بين يدي العملاق المؤذيتين، فيلعب به كما يلعب بخنفساء.

وسمى أهل شيخان طريقة سلوك العتليت الشاذة العابثة هذه «هجمة أرتيوم»، وقد أكسبته أعداء كثيرين، ولكنهم عجزوا عن تحطيم قوته الهائلة رغم جهودهم العديدة.

وذات مرة استقر رأي سبعة من «الفتوات» بالمدينة على أن يعطوا أرتيوم درسًا يطامن من غلوائه مدة من الزمن، فدفع اثنان منهم الثمن غاليًا، وولى الباقون الأدبار في الحال. ومرة أخرى استأجر بعض البقالين والأزواج المجروحون جزارًا من مدينة أخرى، اشتهر بأنه خرج مرات عديدة ظافرًا في معاركه مع الأقوياء الشداد، وأخذ الجزار على عاتقه أن يضرب أرتيوم حتى الموت مقابل مكافأة مالية ضخمة، ولما تقابل الرجلان كسر أرتيوم ذراع الجزار، ثم ضربه تحت قلبه

ضربة أفقدته الوعي. وأذهلت انتصاراته الخارقة هذه أعداءه طبعًا، ولكنها رفعت اعتباره في نظر الناس، واستمر يقوم بهجماته هذه ساحقًا كل من يعترض طريقه.

ترى أي مشاعر كان يعبر عنها بقسوته هذه؟ أكان ربيب الغابات والحقول يريد أن ينتقم لنفسه من المدينة وفتيانها، بعد أن انتزع من وسطه الطبيعي؟ ربما كان يشعر شعورًا قاتمًا بأن المدينة تدمره تدريجيًّا، مسممة جسده وروحه، فيقاتل بهذا الشعور، كأن طبيعته تثيره ضد القوى المميتة التي تغله.

وكان هجماته تنتهي أحيانًا إلى مركز البوليس، حيث كان يعامل أفضل من كل سكان شيخان، فقد كان البوليس مندهشًا من قوته الخرافية، ويتسلى بنوادرها، ويعرف أنه ليس من المهارة حتى يسرق، وكان يغلب أن يعتريه حالة نفسية خاصة بعد هجماته، فيبدو عليه الذهول، وتلوح في عينيه نظرة وحشية غريبة، ويكسبه جمود وجهه مظهر الأبله، وعندئذ تدعي ملكية هذا الوحش الشرس بقالة تُدعى «بلزاك»، وهي امرأة مشحمة حتى نخاعها، فتأخذه تحت رعايتها والخوف يخامرها.

– هل تطلب قدحين آخرين من الجعة يا أرتيوم؟ أم تريد خمرًا؟ إنك لست كما يجب اليوم، أتريد شيئًا تأكله؟

– دعيني وحدي.

هكذا كان أرتيوم يجيبها في صوت غليظ، فتكف عنه دقائق قليلة،

ثم تعود إلى مداعبته بالشراب عارفة أنه إذا ثمل أصبح لينًا مطيعًا مع نديمه.

والآن، راق للقدر المغرم بالألاعيب أن يلاقي أرتيوم بقايين.

وهاكم ما حدث:

دُعِيَ أرتيوم إلى حفلة صاخبة، بعد هجمة من هجماته، اتخذ بعدها طريقه مع رفيقته إلى منزلها وهما يترنحان.

وكان منزلها يؤدي إليه طريق ضيق منعزل، فكمن له أعداؤه في هذا الطريق، وفيما هو سائر انقضت عليه فجأة عصبة من الرجال وطرحوه أرضًا في الحال، فولت رفيقته الأدبار، وكان الليل مظلمًا، والمكان مهجورًا وأرتيوم عاجز عن الدفاع عن نفسه بسبب الخمر التي حدت من قوته، فواتت الفرصة أعداءه ليصفوا حسابهم معه، وانتقموا لأنفسهم ساعة، أفرغوا خلالها ما بأنفسهم من حفيظة وموجدة، حتى تعبوا، وأسفرت المعركة عن جسدين يرقدان أرضًا بلا حراك، أحدهما أرتيوم، والآخر رجل مشهور باسم «التيس الأحمر».

وقر رأيهم بعد المشاورة على أن يخفوا أرتيوم في «صندل» قديم أتلفته الثلوج، كان ملقي على شاطئ النهر، ثم يعودوا بالتيس الأحمر معهم.

وجرح أرتيوم فأعاده الألم إلى وعيه، ولكنه ارتأى أن التظاهر

بالموت خير طريقة، فخنق الصرخة التي كادت تفلت منه، لقد ضربوه بقسوة، وتسابقوا في إلحاق الأذى به، وأخذ كل منهم يزهو أمام زملائه بالضربات التي كالها له، وسمع أرتيوم ميشكا فافيلوف يقص عليهم كيف واظب على ضرب أرتيوم تحت ضلع كتفه اليسرى كي يشق قلبه، وقال سكهبليوف إنه ركز ضرباته في بطن الفريسة؛ لأنه إذا تمزقت الأمعاء الداخلية، لم يعد الطعام ذا فائدة لصاحبه مهما تناول منه، أما لوكامين فقد «تنطط» مرتين على بطن أرتيوم. وباختصار، خص كل منهم نفسه بقسط معين من الإيذاء يميزه، واستمروا يتحدثون عن أفعالهم حتى وصلوا إلى الصندل الذي دفعوا تحته جسد أرتيوم الذي سمع المعتدين يؤكدون لأنفسهم، وهم ينصرفون أنه لن تقوم له قائمة بعد اليوم.

ها هو الآن يرقد وحده في الظلام، على كومة رطبة من النفايات التي يطرحها النهر عند فيضانه. كانت ليلة باردة من ليالي مايو، وكان أرتيوم يفيق في فترات متقطعة منتعشًا بطراوة الهواء، ولكنه عندما حاول الزحف إلى النهر غلبه الألم الذي انطلق في كل نسيلة من جسده، وأغمي عليه من جديد. وكان يمكنه أن يسمع النهر القريب منه وهو يلطم الشاطئ كأنه يسخر من عجزه عن الحراك، ورقد على هذه الحال طيلة الليل يخاف أنينه وما قد يترتب عليه.

وكلما أفاق كان يشعر كأن ثمة شيء يريحه من عنائه، وأخيرًا استطاع بصعوبة بالغة أن يفتح عينًا واحدة، ويحرك شفتيه الممزقتين

المتورمتين، وقدر أن الوقت لا بد أن يكون نهارًا، ورفع يده إلى وجهه فأحس بخرق مبتلة تغطيه، وتغطي صدره وبطنه، وأحس أن ملابسه نزعت عنه، وخفف الهواء الرطب آلامه.

فقال -وهو يشعر شعورًا غامضًا أن لا بد أن هنالك أحدًا بجواره-:

- قليل من الماء.

فمرت على رأسه يد ترتجف واضعة فوهة الزجاجة بين شفتيه، كانت اليد الممسكة بها ترتعش لدرجة أن الزجاجة اصطكت في أسنان أرتيوم. فلما ارتوى، انتابه الفضول ليعرف من بجواره، فحاول تحريك رأسه لكنه تألم ألمًا شديدًا أجبره على أن يرقد ساكنًا، فتمتم بكلمات قليلة متقطعة في صوت محشرج:

- براندي... أعطني قدحًا منه لأشربه، وادعك جسدي به، فربما استطعت النهوض.

- النهوض! إنك لا تستطيع أن تنهض، فجسمك كله أزرق متورم كجسم الغريق، أما البراندي فميسور -لدي زجاجة منه- بل عندي زجاجات بأكملها.

كانت هذه الكلمات تلفظ بسرعة، وبصوت مشفق عطوف، وعرف أرتيوم الصوت، ولكنه لم يستطع أن يتذكر صوت مَنْ مِنْ رفيقاته، قال:

- أعطني بعضًا منه.

ومرة أخرى ناولته اليد الزجاجة من فوق رأسه كأنها لا تريده أن يعرفها. وبينما كان أرتيوم يجرع البراندي، كانت عيناه تجولان في قاع الصندل المظلم الرطب المغطى بالقطران، وبعد أن أفرغ ما يقرب من ربع محتويات الزجاجة، تنهد من أعماقه، وقال بصوت خفيض عميق، وصدره يحشرج:

– لقد أمعنوا في إيذائي هذه المرة، لكن انتظري.. سأسترد قواي فترين ما سأفعله بهم!

فلم يأته جواب، ولكنه أحس حركة خفيضة كأن شخصًا يبتعد عنه، ثم ساد سكون لا يعكره إلا حفيف الأمواج، وشخص يغني أغنية «دوبينوشكا» مصحوبة بتأوهاتها. وترامى إلى سمعه صوت حَمَل يرعى بعيدًا، ثم انبعث صفير الباخرة الضعيف يشق الهواء، وبعد ثوان قليلة سمع صوت صفارة الباخرة الحزين كأنها تودع الأرض إلى الأبد.

ورقد أرتيوم طويلًا ينتظر جوابًا على كلماته، ولكنه لم يتلق شيئًا. وبدت قصعة الصندل الهائلة العفنة كأنها ستسقط عليه وتسحقه بلا رحمة.

وتملكت أرتيوم الحسرة على نفسه، وفجأة شعر بعجزه الطفلي وبالحزن؛ «أيشوهونه، ويذلونه إلى هذا الحد وهو الجميل القوي؟». ورفع يديه الضعيفتين فأحس بالكسور والأورام في صدره ووجهه، فأخذ يسب بأسى ويصيح متألمًا. بكى، وأنّ، وسب قاتليه، وضغط

الدموع التي ملأت عينيه بين أهدابه، فانحدرت كبيرة، دافقة، إلى خديه، وسقطت في أذنيه، وشعر كأن بفضلها أزيح عن كاهله عبء ثقيل.

وتمتم خلال نشيجه يقول:

- حسنًا... انتظروا.

وعندئذ سمع بجواره نشيجًا وتمتمات مخنوقة كأن أحدًا يسخر منه.

فصاح مهددًا، وإن يكن الخوف خالجه لسبب ما:

- من هذا؟

فلم يأته جواب.

فاستجمع أرتيوم قوته كلها وانقلب على جنبه وهو يجأر ألمًا كالوحش الجريح، وأسند نفسه بكوعه، فاستطاع أن يميز في الظلام شكلًا ضئيلًا كور نفسه يجلس على حافة الصندل. كان رجلًا استقرت رأسه بين ركبتين جمعهما بأصابعه المعروقة، وكفاه ترتعشان بعنف. ولاح لأرتيوم أنه صبي صغير فصاح به:

- تعال هنا.

ولكن الأخير لم يجب، واستمر في شرعته كأنه يرتجف من حمى.

ولاحت في عيني أرتيوم نظرة ألم وخوف عندما رأى هذا الشكل الإنساني الضئيل، فصاح ثانيًا:

- تعال!

فأتاه الجواب سيلًا من الكلمات المرتعشة يقول:

- أي أذى ألحقت بك؟ لماذا تصيح في وجهي هكذا؟ ألم أغسل جراحك وأسقيك؟ ألم أسقك خمرًا؟ ألم أصرخ عندما صرخت؟ ألم يؤذني أنينك؟ آه يا إلهي، يا سيدي! حتى الخير الذي أفعله لا يعود عليَّ إلا بالعذاب. أي شر ألحقت بجسدك أو روحك؟ كيف يمكنني أنا... أنا أن أؤذيك؟

وانفجر في النحيب دون أن يزيد شيئًا.

كان جالسًا على الأرض، رأسه بين يديه، وجسده يرتجف.

- أهو أنت؟ يا سلام يا قايين، أهو أنت؟

- حسنًا، وماذا في ذلك؟ هو أنا.

- أنت؟ أأنت الذي فعلت كل هذا؟ حسنًا! تعال إليَّ، تعال، أيها المخلوق الغريب، أنت!

كان أرتيوم مندهشًا، وبداخله شعور يقرب من السرور، بل أخذ يضحك وهو يرى اليهودي يزحف نحوه خائفًا على أربع، وعيناه الصغيرتان لا تكفان عن الحركة في وجهه المضحك الذي يعرفه أرتيوم جيدًا، ورأى أنه من الضروري أن يؤمن اليهودي على نفسه، فقال:

- لا تخف. أقسم أني لن أمسك بسوء.

فزحف قايين حتى صار بقربه، وتطلع إليه بابتسامة ذليلة تلتمس العفو، كأنه يتوقع أن يدوسه العتليت بقدمه.

سأله أرتيوم الذي أصبح يستطيع تحريك لسانه بصعوبة:

– إنه أنت إذَنْ! وفعلت كل هذا من أجلي؟ من أرسلك؟... أهي «أنفيسا»؟

– لقد أتيت من تلقاء نفسي.

– أتقول من تلقاء نفسك؟ لا شك أنك تكذب!

– لقد أتيت من تلقاء نفسي وأرجو أن تصدقني، وسأخبرك كيف حدث الأمر. لقد سمعت بالحكاية في جرابيكوفكا حيث كنت أتناول الشاي وسمعتهم يقولون: «الليلة الماضية اصطادوا أرتيوم» فلم أصدقهم طبعًا، وهل يمكن أن يضربوك؟ وضحكت في نفسي قائلًا: «يا لكم من أغبياء. إن ذلك الرجل هو شمشون، فمن منكم يستطيع التغلب عليه؟» ولكن لثاني مرة أخذوا يرددون نفس الشيء قائلين: «ها هو قد دفع الثمن، ها هو قد دفع الثمن» وسبوك وضحكوا منك، وكلهم شامت مسرور، فاضطررت أخيرًا إلى تصديق كلامهم، ثم علمت أنك هنا فأتيت ورأيتك... كنت تئن وأنا واقف بجانبك، فقلت لنفسي وأنا أنظر إليك: «تغلبوا عليه أخيرًا، على أقوى رجل في العالم... يا لقوته... يا لقوته»، وشعرت بالشفقة عليك، سامحني لقولي هذا، ورأيت أن جراحك يجب غسلها، ففعلت... وأنعشك الماء وهزني السرور وأنا أراك تعود إلى وعيك. آه كنت أنتفض

سرورًا، إنك لا تصدقني، ولست أجهل ذلك. لماذا؟ ألأني يهودي، أليس كذلك؟ ولكن لا، صدقني، فسأخبرك سبب سروري إلى هذا الحد، وكل ما فكرت فيه، سأخبرك الحقيقة، ولكن أتعدني أنك لن تغضب مني؟

فأقسم أرتيوم غاضبًا:

- انظر، إني أرسم علامة الصليب، ولتمسسني صاعقة إذا أمسستك بسوء.

فازداد قايين اقترابًا مخفضًا من صوته:

- أنت تعرف أي حياة جميلة أحياها، ألا تعرف؟ ألم أتحمل -عفوك- ضربات قاسية منك؟ ألم تهزأ دائمًا باليهودي القذر؟ ماذا؟ أليس كلامي صحيحًا، سامحني إذا قلت الحق، فقد أقسمت على ذلك، لا تغضب، فأنا لا أعني إلا أنك اضطهدت اليهودي كما اضطهدت الآخرين، لماذا؟ أليس اليهودي من أبناء الله، ألم يمنحني روحي نفس الإله الذي منحك روحك؟

كان قايين مندفعًا في كلامه، يلقي السؤال عقب السؤال دون أن يدع فرصة لجواب، فالكلمات تتدفق من شفتيه سريعة مصحوبة بذكرى ما ينوء به من إهانات، وانغمر قلبه في الحال في حسرة محرقة.

ولكن الإعياء أخذ يدب سريعًا في أرتيوم، فقال:

- اسمع يا قايين. دع كل هذا الآن، ولتحل عليَّ اللعنة إذا مسستك

بأصبع بعد اليوم، وإذا آذاك أحد مزقته إربًا! أفهمت؟

فصاح قايين منتصرًا، بل مزغردًا:

- آه! أنت تشعر الآن بالخطأ، سامحني ولا تغضب؛ لأني جعلتك تشعر بالخطأ، ولكن أعرف، بل أنا واثق أنك أقل خطأ من الآخرين، فالآخرون لم يفعلوا إلا أن غطوني ببصاقهم القذر، ولقد بصقت عليَّ أنت أيضًا، ولكنك بصقت عليهم كذلك، بل قسوت على الآخرين أكثر مما قسوت عليَّ، فقلت في نفسي: «هذا الرجل يهينني ويضربي، لا لأنني يهودي، بل لأني مثل الآخرين، ولست أحسن منهم، وأعيش بينهم، و.... لقد أحببتك دائمًا، ولكن حبي كان ممزوجًا بالخوف، واعتدت أن أنظر إليك وأتخيل أنك يمكنك أن تقتلع فك الأسد وتضرب به الفلسطينيين، رأيتك تضرب الآخرين وأحببت طريقة ضربك لهم، وأردت أن أكون قويًّا مثلك، ولكني لست إلا بعوضة.

فأطلق أرتيوم ضحكة جافة، قائلًا:

- حقًّا. إنك أشبه بالبعوضة!

لم يتمكن أرتيوم من فهم كل ما قاله قايين، ولكن أراحه أن يرى شكل اليهودي الضئيل بجواره، ففيما كان قايين يهيم في همسه المضطرب، كان أرتيوم يحدث نفسه:

- لست أدري أي وقت هذا، إنه الظهر تقريبًا، فيما يبدو لي. لم

تأت ولا واحدة من حبيباتك لتراك في محنتك، ولكن اليهودي أتى، وساعدني، ويقول إنه يحبني، ومع ذلك ضربته وأهنته! كما أنه يمتدح قوتي! هل تعود لك القوة ثانية؟ يا إلهي، لو تعود!

وتنهد أرتيوم من أعماقه، وتخيل أعداءه يرقدون متورمين كما يرقد الآن، بعد أن أشبعهم ضربًا، يرقدون عاجزين في مكان ما، ولكن أحباءهم وزملاءهم سيعودونهم ولن يعودهم يهودي كهذا!

ونظر إلى قايين فبدا له أن خواطره آلمت فمه وعنقه، وبصق، وزفر زفرة عميقة، واستطرد قايين وقد تلوى وجهه ألمًا وإشفاقًا، وجسمه يرتجف:

– وعندما صرخت... صرخت أنا أيضًا.. من شفقتي على قوتك الضائعة.

فقال أرتيوم بابتسامة مظلمة:

– وظننت أن أحدًا يسخر مني.

– لقد أحببتك، أحببت قوتك دائمًا، وصليت إلى الله قائلًا: «يا إلهنا الخالد على السماء والأرض، مهد السبيل لكي يحتاجني هذا الرجل القوي! أتح لي أن أخدمه، ودع قوته تكون حمى ألوذ به! لتجعل قوته تقف بيني وبين الاضطهاد الذي أعانيه، ولتجعلها تمحو أعدائي ومضطهديّ. هكذا كانت صلواتي، وقد واظبت عليها طويلًا..

طويلًا، سائلًا الله أن يجعل من أعظم أعدائي صديقًا ألوذ بحماه، كما وهب موردافي حاميًا في شخص الملك داود الذي هزم الأمم، وعندئذ أخذت تصرخ فصرخت أنا أيضًا، ولكنك فجأة صرخت فيَّ، فتبددت صلواتي كلها.

فقال أرتيوم وقد لاحت على وجهه ابتسامة من اقترف ذنبًا:

- حسنًا، وكيف كان في مقدوري أن أعرف، أيها الإنسان الغريب.

ولكن قايين لم يتبين كلماته، وترنح يمينًا ويسارًا، وهو يعبر بيديه، واستمر في همسه، كان همسًا خفيضًا مؤثرًا، يخالطه الفرح والأمل، وعبادة قوة الرجل المضروب، والخوف منه والقلق عليه، قال:

- وها قد أتى يومي آخر الأمر، فأنا هنا وحدي معك، هجروك كلهم ولكن أنا... أنا أتيت.. ستسترد قوتك يا أرتيوم، أليس كذلك؟ ستعود قوتك إليك.

- لا تخف! فسأسترد قوتي ثانية، سأعتني بك كما أعتني بطفل صغير جزاء لك على طيبتك.

وبدأ أرتيوم يشعر بالتحسن شيئًا فشيئًا، وأخذت آلام رأسه تخف، وعقله يصفو، وقال في نفسه:

- يجب أن أحمي قايين.. ولم لا؟ إنه رقيق القلب، صريح لا يداور في كلامه.

وابتسم فجأة، فقد عرف الآن الرغبة الغامضة التي طالما طافت بخاطره، فقال:

- إني جائع! أيمكنك أن تجد لي شيئًا آكله يا قايين؟

وما كاد قايين يسمع قوله هذا حتى قفز بسرعة صدمت رأسه بألواح الصندل صدمة شديدة، وتغير وجهه تمامًا، فبدت عليه الحيوية والنشاط، وبتعبير طفلي ساذج قال لنفسه: «أيسأل أرتيوم، هذا العتليت المغوار، قايين الحقير عن شيء يأكله؟».

- سأصنع كل شيء لأجلك، كل شيء. إن الطعام موجود هنا يا سيدي، لقد أحضرته، فأنا أعرف أن الناس إذا مرضوا تجب تغذيتهم. أنا أعرف ذلك، وقد أنفقت روبلًا كاملًا وأنا في طريقي إلى هنا.

- سنتحاسب فيما بعد، وسأدفع لك عشرة روبلات مقابلة، سأكون قادرًا على رد دينك، فأنا لا أبالي بالنقود، ولكني إذا احتجتها أقول: «هات»، فأُعطى ما أريد.

وضحك ضحكة رقيقة جعلت قايين يشع بالسعادة والسرور، فقال:

- أعرف كل هذا، فلتخبرني الآن ما تطلب، سأفعل المستحيل لأجلك، المستحيل!

- عظيم جدًّا، ابدأ بدعكي من رأسي إلى قدمي بالفودكا، ولا تعطني طعامًا، وإنما ادعكني أولًا، أيمكنك أن تفعل ذلك؟

- وكيف لا يمكنني؟ سترى. سأفعل كأحسن الأطباء.

- فلتبدأ إذَنْ، ادعكني؛ لأنهض على قدمي.

- أتنهض على قدميك؟ لا أظن أنك ستقدر؟

- لا تظن! حسنًا، انتظر وانظر، أو تظن أني سأقضي الليل هنا؟ يا لك من مخلوق غريب! ادعكني أولًا، ثم اذهب إلى «موكفنا» الخبازة، وأخبرها أني قادم كوخها فتهيئه لي، وفيه سأسترد قوتي، سأكافئك بسخاء على تعبك، لا تخف.

فأجاب قايين وهو يصب بعض الفودكا على صدر أرتيوم:

- إني أصدقك، إني أصدقك أكثر مما أصدق نفسي، أوه، إني أعرفك.

- آه! آه، ادعك، لا يهمك ألمي، استمر، آه! آه! هنا! هنا! هناك!... آه! آه!

كان أرتيوم يزأر ألمًا.

وقال قايين وهو ماض في عمله:

- سألقي بنفسي في اليم إذا كان في هذا راحتك.

- كلام جميل! والآن على الكتف! بشدة! لعنة الله على الشياطين! لقد أعطونيها! وكل هذا بسبب امرأة، لولا النساء لما سكرت، ولما جرؤ أحد في الدنيا أن يمسني.

فأجابه قايين الذي أصبح خادمه:

– النساء! إنهن خطيئة هذا العالم، نحن اليهود عندنا صلاة يومية تقول:

– «لتقدس اللهم في ملكوتك، أيها الرب السرمدي، يا مدبر الكون، أحمدك على أنك لم تخلقني امرأة».

فقال أرتيوم ضاحكًا:

– أحق أن عندكم صلاة بهذا المعنى؟ أي أناس غامضين أنتم! ولكن قبل كل شيء، ما المرأة؟ مخلوق بسيط لا ضرر فيه، لا يمكن أن يعيش الإنسان من دونه، ومن الشطط أن تصلي هكذا، فهذا إهانة لها. أتظن أن المرأة مجردة من الشعور؟

كان أرتيوم يرقد أرضًا عاجزًا ضخم الجثة، وقد زادته الأورام ضخامة، ويدعك قايين صدره وجنبيه، نحيلًا هزيلًا يلهث تعبًا ويسعل من رائحة الفودكا، وكانا يسمعان خطوات الناس وهم يسيرون بجوار النهر، وتصل إليهما نتف من الحديث. كان الصندل يرقد في قاع وادي بين جبلين ويحول بينه وبين النهر فاصل ضيق من الرمل غطته الأخشاب القديمة والنفايات، المكان مهجور لا يطرقه إنسان، ولكنه بدا اليوم موضع اهتمام خاص من المارين، فقد رأى قايين وأرتيوم الناس تسير إليه ويجلس بعضهم على القصعة المقلوبة، ويدقون جوانبها، فاضطرب قايين، وتوقف عن الكلام، وزحف إلى أرتيوم يقول بابتسامة خائفة مشفقة:

– أتسمع ذلك؟

فقال العتليت ضاحكًا باعتداد:

- إني أعرف سبب تجسسهم، فهم يريدون أن يعرفوا ما إذا كنت سأنهض وشيكًا أم لا، حتى يهيئوا أضلاعهم لضرباتي! يا لهم من أبالسة! أظنهم آسفين على أني لم أمت! لأن عملهم الحقير لم يُجْدِهم نفعًا.

فهمس قايين في أذنه عابثًا محذرًا:

- سأخبرك سبب تجسسهم، افرض أني تركتك وحدك، عندئذ سيطبقون عليك، و....

وفتح أرتيوم فمه دهشًا من كلماته الجافة:

- ماذا؟ أتظنهم خائفين منك، أيها العفريت الصغير؟ منك أنت؟!

- آه، ولكني أستطيع أن أكون شاهدًا.

- سيضربونك على أم رأسك. ها. ها. ها. وعندئذ يمكنك أن تذهب وتشهد في العالم الآخر.

وضحك، فبددت ضحكته خوف قايين، وتملك قلبه المذعور شعور بالأمن السار.

فستتغير حياته من الآن، وتحمل معنى جديدًا؛ لأن قبضة قوية ستدرأ عنه الضربات الغاشمة والاضطهاد الأثيم الذي تحمله طيلة حياته.

* * *

ومر ما يقرب من شهر

وذات يوم -حوالي الظهر- وقت يرتفع ضجيج الحياة في «شيخان»، وتبلغ أوج النشاط، ففي تلك الساعة يحيط بباعة الأكل أسراب من رجال قدموا من الميناء والسفن، بطونهم خاوية، وشوقهم إلى الطعام شديد، وقتذاك يعبق الشارع كله برائحة اللحم الفاسد المطبوخ، في تلك الساعة، صاح امرؤ بصوت خفيض:

- أرتيوم يقترب.

كان في الشارع بعض الشحاذين يهيمون في أسمالهم البالية، فاختفوا بسرعة كأنهم فصوص من الملح ذابت، واتجه سكان «شيخان» بأنظار اختلط فيها الفضول بالقلق.

فقد انتظر الناس طويلًا قدوم أرتيوم بلهفة حادة، ودارت بينهم مجادلات عنيفة حول ما سيكون عليه مظهره في المرة القادمة.

ولم يغير أرتيوم عادته، فقد مشى في منتصف الطريق مشيته المتهادية كمن يروح عن نفسه بعد أكلة دسمة، ولم يتغير شيء في مظهره، فصديريته معلقة كالمعتاد على كتفه، وقبعته مائلة إلى حاجبه الأيمن، وخصلات شعره تنحدر على جبهته، وإبهام يده اليمنى في حزامه، ويده اليسرى غارقة في جيب سرواله وصدره منتفخ إلى الأمام.

وتبعه من بالشارع بعيون مندهشة، وتمتمات الإعجاب بقوته التي لا تقهر. وتحدث الكثيرون آسفين على استعادة أرتيوم لقوته، ملقين

لعناتهم وشتائمهم على الذين فشلوا في تمزيق رئتيه وتحطيم أضلاعه. ولكن ما من رجل في الدنيا كان يمكنه أن يخرج سالمًا من علقة كهذه! وسر آخرون وهم يتخيلون الطريقة التي سيصفي بها حسابه مع التيس الأحمر وعصابته. وكلما سار أرتيوم عظمت قوته في عيون الناس، وازداد افتنانهم بها، وسيطر سحرها على أغلب سكان شيخان.

ودخل أرتيوم حانة جرابيلوفكا التي تعتبر منتدى شيخان.

ولم يكن بالحجرة المنخفضة المبنية بالطوب إلا قلة من الناس، ووقف أرتيوم عند مدخلها، فصاح واحد أو اثنان صيحة تعجب عند رؤيته، وكان ثمة تراجع أقدام سريع، وألقى أحدهم نفسه في ركن قصي من أركان الحجرة الشبيهة بالقبو، العابقة بروائح التبغ الرخيص والقاذورات والرطوبة.

وترك أرتيوم عيناه تجوبان الحجرة ببطء، دون أن يظهر أنه لاحظ أحدًا منهم، ورد على تحيات صاحب الحانة سامجكا فلبنيكوف، سأله:

- ألم يكن قايين هنا؟

- سيحضر حالًا، فهو يأتي عادة في مثل هذا الوقت.

وأخذ أرتيوم مجلسه قرب إحدى النوافذ المكسورة، وطلب شايًا، وشرع يمتحن أفراد العصابة بلا اكتراث، وقد أراح يديه الهائلتين على المنضدة.

كانوا ما يقرب من عشرة رجال على وجوههم سيماء الشراسة، تجمعوا حول مائدتين يرقبون أرتيوم، ولما تلاقت نظراتهم به، ابتسموا جميعًا ابتسامات حذرة خائفة، كأنهم يستجدون رضاه، وأظهروا رغبتهم في التحدث معه، ولكن أرتيوم أجابهم بنظرات مظلمة تنذر بالويل، فلموا ألسنتهم جميعًا، عاجزين عن تقرير من يبدأه بالحديث. أما فلبنيكوف فكان مشغولًا وراء البار، ويتمتم من خلف شاربه، وعيناه تنظران حوله بخوف.

كانت ضوضاء الشارع الصاخبة تنفذ من النافذة في مزيج من ألفاظ سافلة وشتائم بذيئة، وصيحات الباعة وهم ينادون على بضائعهم، وصوت الزجاجات تتناثر على الأرض، وبدأ أرتيوم يعتريه السأم في هذه الحجرة الخانقة الكئيب، فصاح فجأة بصوت عال مقصود:

- أيها الرجال، بل أيها الذئاب، لماذا تضاءلتم فجأة إلى هذا الحد؟ ألا عمل لديكم أفضل من الجلوس محملقين ساهمين؟

فأجابه العريس القذر ناهضًا من مجلسه متجهًا إليه:

- سنتحدث مسرورين إذا شئت.

وكان هذا العريس القذر رجلًا نحيلًا مستدير الرأس ذا ذقن طويلة مدببة وعينين حمراوين تشعان شررًا، يرتدي صديرية من الخيش وسروال جندي، وقال وهو يجلس إزاء أرتيوم:

- سمعت أنك كنت مريضًا.

- وماذا في ذلك؟

- لا شيء، ولكنا لم نرك من وقت طويل، ولما سألنا عنك أخبرونا أن أرتيوم سره أن يمرض.

- كذا! حسنًا!

- حسنًا! دعنا نسأل عما أصابك؟

- ألا تعرف؟

- وهل كنت أعالجك؟

فقال أرتيوم ضاحكًا:

- إنك تكذب طيلة الوقت يا كلب، لماذا تنطق بالأكاذيب؟ إنك لا تجهل شيئًا مما حدث.

فقال العريس ضاحكًا أيضًا:

- أجل، أعرف.

- إذَنْ، لماذا تكذب؟

- الكذب أليق.

- أليق! أهذا ظنك يا ذبالة الشمعة!

- نعم، فربما كنت تغضب لو قلت الحقيقة.

- يا لحقارتك.

- أشكرك! ومع ذلك لا تريد أن تطلب لنا شيئًا من الفودكا احتفالًا بنجاتك.

- اطلب ما تشاء.

فأمر العريس القذر بنصف زجاجة من الفودكا، وأخذت قواه تنتعش فقال:

- إنك تعيش في بحبوبة، ولا تعرف الحاجة إلى النقود.

- حسنًا، ثم ماذا؟

- لا شيء، وإنما النساء هن اللائي يوقعنك في المتاعب. قاتلهن الله!

- لأنهن لا ينظرن إليك، أليس كذلك؟

فتنهد العريس قائلًا:

- وما يمكننا أن نفعل؟ ليس لنا أن نجاريك.

- لا، بل لأن النساء يحببن الرجل القوي -فمن أنت-؟ كما أني نظيف.. وأنت كما ترى.

كانت هذه طريقة أرتيوم حين يخاطب الشرسين من الرجال، وكانت طريقته هذه الهازئة الهادئة تؤكد كلماته التي لا تنقصها القسوة والإهانة، لعله كان يشعر أن زملاءه أسوأ منه من نواح عدة، وإن كانوا أحذق منه في كل شيء.

ظهر قايين في تلك الساعة، حاملًا صندوق بضائع على صدره

ومرتديًا رداء أصفر من القطن، ووقف دقيقة على عتبة الحانة غير قادر على كبح شعوره المعتاد بالخوف، وأخذ يتلفت، ويفحص الحجرة بابتسامة مضطربة، ولكنه عندما أبصر أرتيوم شع وجهه سرورًا، ونظر إليه أرتيوم، وحياه بابتسامة عريضة، وناداه قائلًا:

- تعال اجلس معي.

ثم تحول إلى العريس وأمره هازئًا:

- وأنت لتذهب لتفسح مكانًا للرجل.

فعرت الدهشة والاشمئزاز وجه العريس القبيح، وقام من مجلسه متثاقلًا، ناظرًا إلى زملائه الذين لم يكونوا أقل منه دهشة، ثم إلى قايين الذي شرع يقترب من المائدة بحذر وهدوء، وأخيرًا بصق على الأرض وصاح غاضبًا:

- إتفوه!

وعاد إلى مائدته متباطئًا ساكنًا، وما لبث أن انبعثت منهم تمتمة مبهمة تستبين منها ما ينم عن الغضب والاشمئزاز.

وحافظ قايين على ابتسامته في ارتباك مرح، وهو يطلق نظرات قلقة إلى حيث يجلس العريس وزملاؤه، وخاطبه أرتيوم بانشراح قائلًا:

- حسنًا، دعنا نتناول الشاي يا تاجر، ولنأكل بعض الفطائر. ألا تريد شيئًا منها؟ لماذا تنظر إليَّ هكذا؟ ابصق عليهم ولا تخف، انتظر لحظة، فسألقي عليهم درسًا.

ونهض ملقيًا صديريته أرضًا بحركة من كتفه، وسار إلى المنضدة التي تجمع حولها الأشرار، ووقف إزاءهم طويلًا قويًّا شامخ الصدر، ذراعاه متهيآن للعراك، متحفزًا بكل قوته، وعلى شفتيه ابتسامة هازئة. أما هم فقد جلسوا يتطلعون إليه لا ينبسون بحرف، مستعدين للطيران من أمامه هربًا، فخاطبهم أرتيوم قائلًا:

- حسنًا! عما تثرثرون؟

وكأنه يريد أن يقول شيئًا ترتجف منه قلوبهم، ولكن الكلمات لم تسعفه، فسكت. فأجابه العريس مقطبًا، وبحركة من يده قال:

- اخرج أنت وهو، أليس من الأفضل لك أن تتركنا بسلام.

- اخرس.

أمره أرتيوم وقد كشر عن وجهه، وأردف:

- أنتم غاضبون لأني صادقت اليهودي، وطردتكم من مجلسي، ولكني أخبركم أن اليهودي خير من أي منكم، وإن له شعورًا نبيلًا تفتقرون إليه كلكم. لقد عادني في محنتي، ولذا فإني أحميه من أي سوء، وإن جرؤ أحدكم على الإساءة إليه، فليعلم أن أجله قد انتهى. إني أخبركم بصراحة أنني سأضرب المعتدي وأعذبه حتى الموت. أما أنكم تغلبتم عليَّ وأنا سكران، فهذا ما لا آبه له، إنكم لم تخبروا قوتي بعد، وليس عليَّ إلا أن أقسو قليلًا، ولكن لتفهموا جيدًا أني سأدافع عن قايين، وإذا أهانه أحدكم بكلمة، فليعلم جيدًا أنه لن تقوم له قائمة

بعد ضربي إياه.. هذا.. وليبلغ الحاضر منكم الغائب.

وتنهد من أعماقه، كأنه أزاح عن كاهله عبئًا ثقيلًا، وأدار لهم ظهره وعاد إلى مقعده.

«خطيب بارع».

قالها العريس القذر هامسًا، وعبس استهزاء عندما رأى أرتيوم يجلس بجوار قايين الذي جلس إلى منضدته شاحب الوجه، دون أن تفارق عيناه أرتيوم طيلة الوقت، وقد اتسعتا وامتلأتا بتعبير لا يوصف.

فسأله أرتيوم في صوت ثابت:

– هل سمعت ما قلت؟ لقد فهمت إذَنْ. إنه إذا مسك إنسان بسوء، يجب أن تجري إليَّ وتخبرني؛ لأسحق لك عظامه.

فتمتم اليهودي شيئًا على سبيل الإجابة، كأنه يصلي أو يشكر الرجل، وتهامس العريس وعصابته، ثم انسحبوا واحدًا إثر آخر، وأنشد العريس وهو يمر بمائدة أرتيوم:

لو كان لي من المال

قدر ما لي من العقل

لشربت الخمر مسرورًا

ولما أفقت من نشوتي أبدًا

ونظر إلى أرتيوم مباشرة، وأضاف إلى الأغنية كلمات ابتدعها، وهو في مواجهته، ويخبط الأرض بقدمه مصاحبًا النغم:

ولاشتريت كل أغبياء هذه الدنيا

وألقيت بهم في أعماق البحر المظلمة

واتجه إلى الباب مسرعًا واختفى.

فسبه أرتيوم، وتفحص المكان بعينيه، فلم يجد بالحجرة -المعتمة العابقة بالدخان الكريه الرائحة- غيره وقايين وسافكا وراء البار.

وتلاقت عينا سافكا الثعلبيتين بنظرة أرتيوم المظلمة، وقد اتخذ وجهه طيبة مصطنعة، وقال:

- لقد أتيت أمرًا رائعًا يا ميخايلوفيتش.

ثم أردف وهو يحك ذقنه:

- لقد عملت بتعاليم الإنجيل، مثل السامري الطيب تمامًا، فقد كان قايين مثخنًا بالجراح ولم تتركه.

فلم يعبأ أرتيوم بكلامه، ولكنه سمع صداه، بعد أن عكسه السقف الحجري، هائمًا في الهواء الملوث في زحفه إلى أذنيه، وظل أرتيوم صامتًا، يهز رأسه ببطء كأنه يبعد الصوت عنه، ولكن الكلمات كانت لا تزال عالقة بالهواء، تخترق أذنيه، مضايقة إياه، وخيم عليه عبء ثقيل كأن حمل غريب يسحق قلبه.

ونظر إلى قايين الذي وجد شايه ساخنًا فأخذ يبرده في الطبق، كان اليهودي منحنيًا على المنضدة، يرشف الشاي ببطء والطبق يرتعش بين أصابعه. ها هو للمرة الثانية يضبط اليهودي ينظر إليه

بخوف، فازداد انقباض العتليت عندما شعر بتحديق اليهودي فيه، وشعر شعورًا غامضًا بعدم الرضاء عن نفسه، وأخذ هذا الشعور يشتد شيئًا فشيئًا، ولاحت في عينيه نظرة عميقة قاتمة، فنظر إلى اليهودي بوحشية، والأفكار الخرساء تدور برأسه وتدور كأنها أحجار طاحون. لم تكن تضايقه الأفكار فيما مضى، ولكنه عرفها أثناء مرضه، ولازمته من ذلك الحين، فنوافذ الحجرة بقضبانها الحديدية أصبحت تضايقه، ومن خلالها تنفذ ضوضاء الشارع إلى الحجرة تصم الآذان، وخيمت عليها أحجار السقف الثقيلة، أما الأرض فمغطاة بالأقذار والطين الزلق، وأمامه جلس اليهودي الضئيل ملتفًّا بأسماله.. مرتعشًا، لا ينبس بحرف، ومن النافذة تبدو حقول القمح وقد أينعت تنتظر حاصديها، وعلى الجانب الآخر من النهر، في الحقول المواجهة للمدينة، ارتفع العشب البري حتى حاذى خصر الرجل، وإذا هبت الريح حملت معها روائحه الكريهة.

سأله أرتيوم، وقد بدا عليه الانزعاج:

– لماذا لا تتكلم أبدًا يا قايين؟ ألا تزال خائفًا مني؟ أي رجل أنت!

فرفع قايين رأسه، وأخذ يهزها بغرابة، مظهرًا وجهًا مليئًا بالتجاعيد والجروح، وتكلم في شبه همس –والانفعال يتملكه، ووجهه يرتعش كعادته عندما تثار روحه المثقلة بالكروب– فقال:

– وماذا أقول لك؟ بأي لسان أتحدث إليك؟ أبهذا؟

وأخرج اليهودي طرف لسانه وأشار إليه قائلًا:

– أأتحدث إليك بهذا اللسان الذي أخاطب به كل إنسان؟ ألا يجب أن أخجل من مخاطبتك بهذا اللسان؟ أتظن أني أجهل أنك خجلان من جلوسك معي ها هنا؟ من أنا؟ ومن أنت؟ فكر في هذا يا أرتيوم يا ذا الروح العظيم.. يا قرين يهوذا ماكبيوس! ماذا تفعل إذا عرفت قصد الله من خلقك؟ آه، لا أحد يعرف أسرار الخالق العظيمة، أو يستطيع أحد تخمين سبب منحه الحياة، إنك لا يمكنك أن تتصور كم أنفقت من أيام وليال أسائل نفسي عن فائدة الحياة لي؟ إني لست إلا مبصقة لبصاقهم الشرير! وما صلة الآخرين بي؟ تلك الحشرات التي تدمي جسدي وروحي، بكل طريقة ممكنة، لماذا أحيا على وجه الأرض؟ لماذا قدر عليَّ ألا أعرف إلا الشقاء؟ لماذا لا ينفذ إلى حياتي أي شعاع من النور؟

لم يفهم أرتيوم ما قاله، وإن يكن سمع ورأى أن قايين يشكو شيئًا ما، وازداد شعور أرتيوم بالتعب والغباء كعادته أمام الأمور التي تقتضي مجهودًا فكريًّا، فهز رأسه ضجرًا وقال لقايين:

– والآن اسمع! إنك تتحدث عن الأمر ثانية، مع أني أفهمتك. ألم أخبرك أني سأحميك؟

فابتسم قايين ابتسامة رقيقة مؤسية، وقال:

– كيف؟ ستتشفع لي أمام الله، إنه هو الذي يوجهني.

فأجابه أرتيوم ناصحًا راحمًا:

– اصبر، لا سبيل إلى عصيان مشيئة الله.

فنظر قايين إلى حاميه وابتسم، فها قد أتى دوره ليشفق عليه بعد أن كان يشفق على أرتيوم.

وسأله أرتيوم:

- هل أنت متزوج؟

- نعم وذو عائلة كبيرة، كبيرة جدًّا بالنسبة إلى قوتي الضعيفة.

وتنهد قايين من أعماقه.

- أحق ما تقول؟

سأله العتليت مندهشًا، فقد كان صعبًا عليه أن يتصور المرأة التي يمكنها أن تحب اليهودي، وتطلع إليه بفضول يطلب المزيد.

- وكان لدي خمسة أطفال، لم يبق منهم إلا أربعة، فقد كانت بكريتي تسعل دائمًا، ثم ماتت. يا إلهي! يا مخلصي! وامرأتي مريضة أيضًا، لا تكف عن السعال.

فقال أرتيوم، وقد بدا عليه التفكير:

- إنك تقاسي كثيرًا يا قايين.

أما قايين فقد كان غارقًا في التفكير أيضًا، ورأسه مدلاة على صدره، ودخل الحانة رجال رثاث الملابس قذرو الوجوه، وذهبوا إلى البار، حيث تهامسوا مع سافكا، وبدا كأن الأخير يسر إليهم شيئًا، وهو ينظر إلى قايين وأرتيوم نظرات ذات مغزى، جعلت الرجال يحملقون فيهما بنظرات تمتزج فيها الدهشة بالاشمئزاز. ولحظ قايين

هذه النظرات بسرعة، ودب الخوف في قلبه، ولكن أرتيوم كان قد عاود النظر إلى الحقول المجاورة للنهر، ويستمع إلى صوت المنجل وخشخشة الأعشاب الطرية وهي تسقط تحت ضرباته.

همس قايين:

- خير لك الانصراف فهم يضحكون منك بسببي.

- من الذي يضحك؟

زأر أرتيوم، وقد أفاق من أحلامه، وعيناه تكتسحان الحجرة بغضب.

ولكن الحاضرين جميعًا بدوا جادين مستغرقين في أعمالهم الخاصة.

ولم يقبض أرتيوم على أي نظرة موجهة إليه، فعبس مغيظًا وقال لليهودي:

- أنت تكذب عليَّ.. ليس ثمة شيء يستحق شكواك، ولكن خذ حذرك وإلا أضرك كذبك، انتظر حتى تساء معاملتك، ثم اشك إليَّ، لعلك تختبر وعدي؟ أقلت كلامك مغرضًا؟

فابتسم قايين ابتسامة مريضة، ولم يقل شيئًا، ثم نهض، وعلق صندوقه برقبته، مستعدًّا للانصراف، فمد أرتيوم له يده قائلًا:

- هل أنت ذاهب؟ حسنًا، اذهب، واستمر في تجارتك، سأمكث هنا قليلًا.

فهز قايين قبضة حاميه الهائلة بيديه النحيلتين، وغادر المكان مسرعًا، فلما وصل الشارع اختار ركنًا يقف فيه ويرى ما يدور حوله، وتطلع إلى الحانة ولم يطل انتظاره، فقد ظهر أرتيوم عند مدخلها مقطبًا حاجبيه، وفي عينيه نظرة من يخاف رؤية شيء يرغب فيه.

وقف يمتحن جماعات الرجال بعض الوقت، ثم استعاد وجهه مظهر عدم الاكتراث المعتاد، وسار في الزحام حتى نهاية الشارع المؤدي إلى التل، كان الواضح أنه في طريقه إلى مكانه المختار.

وشيعه قايين بعينين حزينتين، ثم غطى وجهه بيديه، وأمال جبهته على الباب الحديدي الذي يقف بقربه.

وأحدث تهديد أرتيوم القوي أثره، وخاف الناس، فتوقفوا عن إيذاء اليهودي وتعذيبه، وتبين قايين أنه قد قلت الأشواك المنثورة في طريق العذاب الذي يسير فيه إلى القبر، فما عاد أحد يضربه على أضلاعه، أو يدوس قدميه، أو يبصق في صندوقه، كأن الناس لم يعودوا يشعرون بوجوده. ولكنه من جهة أخرى، لم يسبق له أن جوبه بمثل هذه النظرات الباردة الكارهة التي تقابله من الجميع.

ولما كان حساسًا بكل ما يتصل به، فقد عرف هذا التغير في اتجاه الناس نحوه، وساءل نفسه عن معناه، وما ينذر به، وفكر في الأمر طويلًا، ولكنه فشل في فهم سبب هذه المعاملة الجديدة. وتذكر أنه فيما مضى، في مناسبات قليلة كان أحد الناس يقف معه ويجاذبه الحديث، ويقول له كلمة طيبة، ويسأله عن أحواله، بل ينكت معه

أحيانًا دون قصد سيئ. أصبح قايين غارقًا في الذكريات، فمن عادة المكروب أن يتذكر أقل حظ من السعادة ناله من قبل، وإن يكن ضئيلًا لا يلحظ.

وهكذا أصبح كثير التفكير، يصغي بآذان منتبهة ويراقب بعيون يقظة، وذات يوم وصلته أغنية ألفها العريس القذر، مغني الشارع الجائل، كان هذا الرجل يكتسب عيشه بالموسيقى والغناء، ولم تكن آلته الموسيقية تتجاوز ثمانية ملاعق حساء، يحركها بين أصابعه، ضاربًا بعضها ببعض، أو خابطًا بعضها على صدره أو خديه العميقين، وبذلك يحصل على الإيقاع الذي يريده لأغنياته التي يؤلفها.

وذات يوم تقابل قايين ومجموعة من الرجال احتشدت حول العريس الذي كان يتحدث إليهم بأسلوب نابض بالحياة، مسلمًا بملاعقه، قائلًا:

بكوبك إلى كوبكين... سيخسرهما حتمًا! إني أبدأ هكذا!

عندما تنفذ أشعة الشمس من النافذة

يفرح الناس

ولكن إذا كنت أنا..

«كلنا نعرف هذه الأغنية»

قاطعه واحد من الجمهور.

- لا شك أنكم قد سمعتموها من قبل، ولكني لا أعطي البركة قبل القربان.

وطرق العريس ملاعقه بعضها ببعض، ثم اندفع في الغناء:

حياتي تعسة، فليس لدي حظ

أبي راضي أراد أن يخبقاني

ولكنهما عندما وضعا الحبل حول عنقي

تمزق الحبل أما رقبتي فلم يصبها سوء

فصاح الرجال جميعًا:

- يا لسوء الحظ.

ولكن الناس ألقوا إلى العريس كوبكاتهم؛ لأنهم يعرفون أنه ذو ضمير، فإذا وعدهم بأغنية جديدة، لن يفوته تأليفها.

قال:

- هاكم واحدة جديدة.

وأحدث بملاعقه موسيقى صاخبة، وأنشد:

صادق ثور عنكبوتًا

يهودي صادق عبيطًا

وعلق الثور العنكبوت على ظهره

فباع اليهودي العبيط للنسوان

آه، يا نسوان!

قف يا مستر قايين! تحياتنا! قد تضرب علقات لا حصر لها، أتحب يا مستر قايين أن تستمع إلى أغنيتي؟ إنها لا تلائم أذنيك... سر في طريقك إذا سمحت.

فابتسم قايين للفنان، وسار في طريقه متنهدًا، وقد تملك قلبه شعور ينذر بالسوء.

وهنأ نفسه بهذه الأيام السعيدة، وانتابه خوف على الناس من حاميه، ففي كل يوم يظهر في الشارع وهو واثق أن أحدًا لن يسرق كوبكاته، وبدا بصيص من النور في عينيه، وأصبحتا أكثر استقرارًا في محجريهما، كان يرى في الطريق كل يوم، ولكنه لم يكن يقترب من العتليت إلا إذا ناداه.

ولم يكن أرتيوم يناديه أو يلحظه إلا نادرًا، وإذا رآه سأله عن أحواله، فيجيبه قايين وعيناه تشعان فرحًا:

- أوه! الحمد لله، أشكرك.

- ألا يسيء إليك أحد؟

- وهل يجرؤون! وهم يعرفون أني في حماك؟

- حسن جدًّا. ولكن اسمع! إذا حدث أي شيء أخبرني.

- حاضر.

- حسنًا.

وينظر أرتيوم إلى جسد اليهودي الضئيل ويصرفه قائلًا:

- والآن، اذهب وباشر عملك.

وكان قايين ينصرف مسرعًا، ويقع نظره في انصرافه على نظرات المتفرجين الساخرة العدائية، التي لا تزال تملؤه خوفًا.

وسارت الأمور على هذا المنوال شهرًا آخر، إلى أن أتى مساء كان قايين يتهيأ للعودة إلى منزله، فقابله أرتيوم وأشار إليه العملاق الجميل بأصبعه يدعوه، فجرى قايين إليه شاعرًا أن أرتيوم في حالة عقلية قاتمة مقبضة تنذر بالسوء، كأنه سحابة من سحب الخريف، سأله أرتيوم:

- هل انتهيت من عملك؟

- أجل، وأنا في طريقي إلى منزلي.

فقال أرتيوم في صوت رقيق:

- انتظر، سر معي قليلًا؛ فثمة أمر أريد أن أقوله لك.

وسار أرتيوم في المقدمة هائلًا متثاقلًا، وتبعه قايين على أطراف أصابعه، وفارقا الشارع، وسار في الطريق المؤدي إلى النهر حتى وجد أرتيوم بقعة مناسبة عند قاع الوادي، بقرب الماء، فقال لقايين:

- اجلس.

وجلس قايين -ملقيًا نظرة جانبية خائفة على حاميه، وأراح أرتيوم نفسه على الأرض، وشرع يلف سيجارة، بينما كان قايين ينقل نظره بين السماء وغابة البتولا القائمة على الجانب الآخر من النهر،

والأمواج الباكية في سكون المساء وهدوئه- وهو يعجب لما يمكن أن يقوله أرتيوم.

سأله أرتيوم:

- حسنًا، هل أنت مرتاح؟

- أوه، أجل، كل شيء على ما يرام! لم أعد أخاف أحدًا.

- يجب أن يكون الأمر كذلك.

- يجب عليَّ أن أشكرك.

فقاطعه أرتيوم قائلًا:

- انتظر.

وطال صمت أرتيوم، وهو جالس يحدق في سيجارته، وقد اضطرب تنفسه، بينما جلس اليهودي ينتظر كلماته، وقد أفعمت قلبه توجسات قاسية.

- وهكذا كفوا عن إيذائك وإهانتك.

- نعم، فهم يرهبونك، إنهم كلاب وأنت أسد، وما أنا إلا...

- انتظر.

فسأله قايين بخوف:

- ما الأمر؟ ماذا تريد أن تخبرني؟

- ماذا أريد أن أخبرك! إن الأمر ليس بسيطًا إلى هذه الدرجة.

- فما هو إذَنْ؟

- حسنًا، دعني أتكلم بصراحة، فأقول كل ما يجب أن يقال، وأصرح لك به.

- ما الذي تريد أن تصرح لي به؟

- يجب أن أخبرك أني لن أعد...

- ما هو الذي لن تعد..؟ كيف؟

فقال أرتيوم متنهدًا:

- لا يمكنني أن أستمر في هذا العمل، إني أنفر منه، إنه لا يناسبني.

- ولكني لا أفهم شيئًا؟

- المسألة كلها هي أني لا أريد أن أعرفك بعد الآن، لمجرد أن معرفتك لا تناسبني.

فترنح قايين كأن امرأً ضربه على أم رأسه.

- وإذا آذاك أحد لا تأت وتشكو إليَّ، لا يمكنني أن أساعدك بعد الآن، لا يجب أن تنظر إليَّ من الآن فصاعدًا على أني حاميك. أفهمت؟ فلا يمكنني أن أحميك بعد اليوم.

وجلس قايين صامتًا كالموت.

وبعد أن فرغ أرتيوم من كلامه تنفس الصعداء، ثم أردف قائلًا، وقد بدا عليه الانتعاش:

– لقد ساعدتني في محنتي، ويمكن أن أرد لك الدين مضاعفًا. كم تريد؟ أخبرني فأعطيك ما تطلب، ولكني لا أستطيع أن أشفق عليك، فأنا لا أشعر نحوك بشيء كهذا، لقد حاولت طيلة الوقت أن أقنع نفسي بأني أشفق عليك، ولكنه كان مجرد ادعاء، قلت لنفسي إني آسف له، ولكن كان هذا كذبًا، فليس ثمة أي شعور بالشفقة في نفسي.

فسأله قايين بوداعة:

– هل ذلك لأني يهودي؟

فنظره أرتيوم نظرة جانبية، وأجابه بسذاجة، بكلمة من تلك الكلمات التي تصدر عن القلب مباشرة:

– ما اليهودي؟ لماذا تقول ذلك؟ كلنا كاليهود نحب الرب.

فسأله قايين بهدوء:

– إذَنْ، لماذا لا تريد أن تعرفني، وتحميني؟

– لأني لا أستطيع، أفهمت؟ إني لا أشعر نحوك بالشفقة، ولا نحو أي مخلوق، حاول أن تفهم كلامي، وما كنت لأقوله لغيرك، وإنما كنت أصرعه في الحال، ولكني أقوله لك.

فسأله اليهودي بصوت خفيض حزين وهو يقتبس من المزامير:

– ومن سيدافع عني ضد الأشرار؟ ومن سيخلصني من أعدائي؟

فأجابه أرتيوم:

– أنا.. أنا لا أستطيع.. لا لأنهم يضحكون، فأنا لا أعبأ بالتفاهات،

دعهم يضحكون، ولكني لا أشفق عليك، وأحب أن أعطيك بعض المال مقابل ما أسديت إليَّ من خدمات.

فصاح قايين منازعًا وقد ازداد كربًا:

– آه يا رب يا قادر على كل شيء! أيها السرمدي! يا إله الانتقام! قم ودع نورك يغمر الأرض، آه يا حاكم الكون!

كانت أمسية صيف دافئة ساكنة، وأشعة الشمس الغاربة تنعكس رقيقة حزينة على مياه النهر، والظلال تغمر قايين وأرتيوم.

وأخيرًا تنهد أرتيوم، وقال بصوت حزين:

– فكر لحظة، فأنت لا تعرف! ولكن أنا، أنا يجب أن أنتقم لنفسي، أنسيت أنهم ضربوني بلا رحمة؟

وبدا عليه الانفعال، وصر على أسنانه، ثم استلقى على الرمال، ومد قدميه في اتجاه الماء، وعقد يديه خلف ظهره.

– لقد عرفت أسماءهم جميعًا.

فسأله قايين بصوت منفعل:

– كلهم؟

– كلهم، وسأشرع الآن في تصفية حسابي معهم، وأنت تعترض طريقي.

فصاح اليهودي:

- وكيف يمكن أن أعترض طريقك؟

- لا أعني ذلك تمامًا، ولكن الأمر شبيه بهذا، إني مر على قلب كل إنسان، فهل أنا أسوأ منهم؟ ذلك ما في الأمر.. حسنًا إذَنْ، لست في حاجة إليك الآن، أفهمت؟

فأجابه قايين خائفًا، وهو يهز رأسه:

- لا.

- ألم تفهم؟ إنك في الحقيقة غريب جدًّا، يجب على المرء أن يشفق عليك. أليس كذلك؟ ولكن لا يمكن أن أشفق على أحد الآن، ليست بي شفقة على أي مخلوق.

وأردف وهو يدفع اليهودي في أضلاعه:

- ليس لديَّ شيء منها! أفهمت؟

وساد سكون طويل، وطغى صوت خرير الأمواج المتلاطمة على حديث الرجلين، وكأن خريرها زفرات نحيب النهر الأسود الساكن.

وسأله قايين أخيرًا:

- وماذا سيكون أمري الآن؟

ولكنه لم يتلق ردًّا؛ لأن أرتيوم كان ذاهلًا، كأنه يوشك على النوم، لقد كان مستغرقًا في تفكيره، فأردف اليهودي مُعَلِّيًا صوته:

- كيف أعيش من دونك؟

- عليك أن تقرر ما ستفعل.

- يا إلهي! يا إلهي!

فأجابه أرتيوم متكاسلًا:

- ليس على المرء أن يعلم الآخرين كيف يحيون.

وهدأ أرتيوم أخيرًا بعد أن أنزع ما لديه.

- كنت أعرف أن الأمر سينتهي إلى هذا من وقت أن ذهبت لأعينك وأنت راقد بين الحياة والموت، عرفت أنك لا تستطيع أن تحميني طويلًا.

ونظر إلى أرتيوم متسائلًا، ولكنه كان مستلقيًا مغمضًا عينيه، فسأله قايين هامسًا حذرًا:

- ربما دفعك إلى هذا ضحكهم عليك بسببي؟

فابتسم أرتيوم وهو يفتح عينيه:

- هم، وماذا يهمني منهم؟ لو كنت آبه لضحكهم، لحملتك في الشوارع على كتفي، دعهم يضحكون... فليس لي أهمية إطلاقًا.. إطلاقًا، ولكن يجب على الإنسان أن يسلك حسب مشاعره الحقيقية، حسب إملاءات روحه نفسها، ولا أهمية إطلاقًا لما ليس في داخله، فهو غير موجود، وأنا يا أخي، أصرح لك بأني أنفر منك! وهذه هي الحقيقة كلها!

- آه، هذا حق، ولكن ماذا عني الآن؟ هل أذهب؟

- نعم، اذهب، فالوقت لا يزال نهارًا ولا يستطيع أحد أن يمسك بسوء، سيما وأن أحدًا لم يسمع حديثنا.

فسأله قايين:

- ألن تبوح لأحد بما دار بيننا.

- طبعًا، ولكن لا تنسَ ألا تقترب مني كثيرًا.

- حسنًا.

وافقه اليهودي هادئًا آسفًا، ونهض على قدميه.

قال أرتيوم في نبرة آسفة:

- وإذا أردت نصيحتي، ارحل من هنا كلية، واحمل بضاعتك إلى أي مكان آخر، فالحياة هنا جد قاسية، وكل إنسان يحاول أن يؤذي أخاه بطريقة ما.

- ولكن إلى أين أذهب؟

- عليك أن تجد المكان الذي تذهب إليه.

- وداعًا يا أرتيوم.

- وداعًا يا أخي.

ومد أرتيوم يده الهائلة دون أن ينهض من مجلسه، فتناولها اليهودي بين أصابعه الهزيلة وقال:

- وداعًا.. أرجو ألا أكون قد آذيتك.

فتنهد اليهودي بأسى:

- لا.

- وداعًا الآن! سيكون في هذا خير كثير، وعندما يتسع وقتك للتفكير فيما جرى الليلة ستتبين أني محق. إنك لست لي بكفء، ولا يمكنك أن تزاملني، هل أعيش لأجلك وحدك؟ لن يكون ذلك!

- وداعًا.

- مع السلامة.

وانصرف قايين، وسار بجوار النهر وذراعاه متراخيتان، ورأسه منحنية. وشيعه أرتيوم بنظره دقائق قليلة، ثم استلقى ووجهه إلى السماء، كما كان في وضعه السابق، وكانت السماء من فوقه تزداد قتامة مع الليل المقترب، وطنت أصوات غريبة في الهواء الساكن يصحبها ترتيل أمواج النهر الرتيب وهي تتكسر على الشاطئ، ولكن قايين عاد ثانية واقترب من الجسد الهائل الممدد على الرمل، وخاطبه وهو واقف بجواره بصوت خفيض متلعثم:

- ربما تكون قد غيرت رأيك.

ولكن أرتيوم لم يجب.

وناداه قايين ثانية:

- أرتيوم!

وانتظر الجواب صابرًا.

- يا أرتيوم ربما تكون قد فعلت كل هذا مازحًا.

وأردف:

- تذكر تلك الليلة، ليلة عدتك واعتنيت بك، ولم يأتك سواي.

ولكن الجواب الوحيد كان تشخيرة واهنة.

وقف قايين طويلًا بجوار العتليت، يحدق في وجهه القوي الجميل الذي رققه النوم، كان صدره القوي يرتفع وينخفض مع تنفسه المنتظم الذي أراح الشارب الأسود، فكشف عن أسنان الرجل القوية اللامعة، فبدا كأنه يبتسم.

وبتنهيدة عميقة ورأس مطأطأة ذلًّا وانكسارًا تحول اليهودي عنه، وسار بحذاء النهر خائفًا حذرًا، فالحياة في عينيه الآن مليئة بالرعب والمخاوف، مخففًا من سرعته حيث الطريق مضاء بنور القمر، ويعدو مسرعًا في الأماكن المظلمة، أشبه بفأر، بحيوان صغير جبان، ويعود إلى جحره والأخطار تتهدده من كل جانب.

وأرخى الليل سدوله، ورقد الشاطئ مهجورًا.

❊ ❊ ❊